من بلاغة السياق القرآني في الحديث عن الألوان

الدكتور

سرحان حسن سرحان

المدرس بقسم البلاغة والنقد بالكلية

المقدمة

الحمد لله رب العالمين القائل: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ الروم: (٢٢)

والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين.

وبعد:

فلقد ازدانت الطبيعة بالألوان فكانت رمزاً للبهاء والجمال ، وتلك واحدة من المعجزات الإلهية الباهرة ، والآيات الكبرى التى تتجلى فيها قدرة الخالق – سبحانه – فى بديع صنعه وخلقه. ولقد أودعها في كتابه الكريم ؛ الذي هو بحر زاخر بالمعجزات والأسرار، ومستودع آيات الإعجاز والإبهار ، ومهما شمّر الباحثون ، وأخلص المنقبون عن وجوه الإعجاز فيه ، فإنه سيظل كما قال رسولنا – صلى الله عليه وسلم – " لا يشبع منه العلماء ، ولا يخلَقُ عن كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه".

ومن منطلق الدراسة البلاغية للقرآن الكريم ، ومحاولة التعرف على جماله البياني الذى ينتشر فى حروفه وكلماته وتراكيبه – ومدى ملاءمتها لسياقاته – فقد آثرت أن أعيش في رحاب حديث القرآن عن الألوان من خلال سياقاته المتعددة ، كاشفاً عن مدى اهتمام القرآن بالألوان ، ذلك أن اللون يمثل ملمحاً من ملامح الأشياء ، والشيء يعطي صورته إما عن طريق لونه أو صوته أو حركته ، وكلها أمور تخاطب حواس الإنسان ؛ ولهذا فقد احتل اللون أهمية لا

يُستهان بها فهو جزء من حياة الإنسان يدخل في كل شئونه حتى إنه من المستحيل أن نتصور عالمنا بلا ألوان.

" وقد تنبه الإنسان منذ بداية الخليقة لأهمية الألوان وميّز بينها ووضع لها ألفاظاً دالة عليها واستعملها للتعبير عن مجالات الحياة حتى إن استخدامه لها فى الرسم يرجع إلى مائتي ألف عام "[١]

ولقد اهتم القرآن بالألوان لا بوصفها مجرد زينة بل لأن " جماليات اللون جزء من تشكيل الوجدان العربي ، خاطبه القرآن واعتمد عليه من أجل توجيه الوعي العربي الإسلامي نحو الطبيعة ..."[٢]

وللألوان تأثير لا يتوقف عند امتاع البصر وراحة النفس ورياضة الذوق ، بل يمتد إلى ما هو أبعد من ذلك فللألوان سلطانها الشامل على النفوس والطبائع والأمزجة فهي تسمو بأرواحنا وتغذي أعصابنا وتريح إحساسنا. ونتيجة لذلك فقد اهتم بدراسة موضوع الألوان كثير من الباحثين على اختلاف نزعاتهم ومنهاجهم العلمية. ومع ذلك شدني للكتابة في هذا الموضوع عدة أسباب منها:

(١) أردت أن أزاحم العلماء والباحثين في اهتمامهم بموضوع الألوان من خلال تفعيل دور البلاغة في الكشف عن جانب من جوانب

١- اللغة واللون: د. أحمد مختار عمر ، ص١٩ ، ط/ عالم الكتب – القاهرة – ١٩٩٧م.

٢- هموم الفكر والوطن الجزء الأول (القرآن والعصر والحداثة) د. حسن حنفي – ص ٥٨ ، دار قباء وعبده غريب القاهرة. ط/ الثانية سنة ١٩٩٨م.

الإعجاز القرآني – التي لا حصر لها – فـــى اســـتخدامه للألـــوان ؛ وصولاً إلى أسرار الجمال الفني في هذا القرآن المعجز.

(٢) أهمية الألوان في حياتنا الفنية والاجتماعية ، فهي جـــزء من حياة الإنسان وتدخل في كل شئونه وهي دليـــل علـــى آيـــات الله الباهرة في كونه ، فأمرنا أن نتفكر في بديع صنعه ، وأن نتدبر آياته فنقف على بديع نظمه.

(٣) تقسيم القرآن العظيم للألوان وتركيبها اللغوي الرائع مما يستدعي الوقوف عليها وبيان الفرق بينها ، واستكناه أسرارها.

(٤) اهتمام القرآن البالغ بذكر الألوان حيث وردت فى اثنتين وأربعين آية بدلالات مختلفة وألفاظ متنوعة ، مـــن خـــلال ســـياقات القرآن الفريدة ونظمه البلاغي المعجز في غيـــر موضـــع اســـترعى انتباهي ولفت نظري.

وعندما تأملت آيات الألوان وجدت القرآن الكريم استعملها في ثلاث حالات:

الأولى: الألوان بمدلولها العـــام ، والمقصـــود بـــه التنـــوع والاختلاف بين المخلوقات كما فـــي قولـــه تعـــالى: (...مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ...)النحل: (١٣).

الثانية: الألوان بمدلولها الخاص ، والمقصود بالدلالة الخاصة للون هو إيضاح درجته ومدى تأثر نفس السامع بهذه الدرجة ، كمـــا فى قوله تعالى: (...صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ) البقرة: (٦٩). فثمة فرق بين الدلالة العامة والدلالة الخاصة للون ، والـــذي أظهـــر هذه الفروق وأبان عن المعاني الرائعة هو التنـــوع فـــي الصـــياغة

اللغوية والدلالة البلاغية ، والسياقات القرآنية ، والذي تكشف عنه الدراسة – إن شاء الله –.

الثالثة: الألوان بدلالة المفهوم ، وذلك من خلال ألفاظ وتشبيهات يفهم منها اللون دون التصريح به ، كما في قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ ﴾ عبس: (٣٨ ـــ ٤١). ﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾ الرحمن:(٣٧) وقوله: ﴿ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ الرحمن:(٥٨)

وعليه فقد جاء هذا البحث في مقدمة ، وثلاثة محاور ، وخاتمة ، وفهرسين كالآتي:

المقدمة: وتظهر أهمية الموضوع ومنهجه ودوافعه.

المحور الأول: خصصته لحديث القرآن عن الألوان بمدلولها العام.

المحور الثاني: جعلته لحديث القرآن عن الألوان بمدلولها الخاص.

المحور الثالث: قصرته على حديث القرآن عن الألوان بدلالة المفهوم.

ثم أعقبت ذلك بخاتمة أوجزت فيها أهم النتائج التي يمكن الخروج بها من هذا البحث ، وأتبعتها بقائمة لأهم المصادر والمراجع ، وفهرس الموضوعات.

واللهَ أسأل أن يرزقنا الفهم والإخلاص له ، ولكتابه العزيـــز ، كما أسأله سبحانه أن أكتب ضمن الذائدين عن حياض القرآن العظيم ، الكاشفين عن بلاغته الآسرة الجذابة.﴿ ... رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ... ﴾ البقرة: ٢٨٦

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم. آمين.

بقلم

د/ سرحان حسن سرحان محمد

المدرس بقسم البلاغة والنقد بالكلية

المحور الأول
الألوان بمدلولها العام

الألوان بمدلـــولها العام تعني التنوع والاختلاف في النـــوع الواحد ، قال الراغب: " ويعبر بالألوان عن الأجناس والأنواع ، يقال: فلان أتى بالألوان من الأحاديث ، وتناول كذا ألواناً من الطعام " [1]

وقد وردت كلمة " لون " فى القرآن الكريم بمدلولها العام فى ستة آيات بصيغ مختلفة [ألوانه – ألوانكم – ألوانها]

الآيات:

١. ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ **النحل: (١٣)**

٢. ﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ **النحل: (٦٩)**

٣. ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾ **الروم: (٢٢)**

٤. ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ **فاطر: (٢٧)**

١– المفردات للراغب" مادة " لون " ص ٤٥٧.

٥. ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ فاطر: (٢٨)

٦. ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ ﴾ الزمر: (٢١)

التحليل البلاغي:

يلحظ من هذه الآيات أن كلمة " لون " بمدلولها العام وردت في القرآن الكريم سبع مرات في ست آيات بصيغ مختلفة من التذكير والتأنيث [ألوانه – ألوانكم – ألوانها].

ويلحظ أنها وردت كلها بصيغ الجمع ؛ وكأن اللفظ يدل على معناه من حيث التعدد في الشيء الواحد ، والتنوع بين المخلوقات ؛ وإنها لدلالة على كامل القدرة لخالق الأرض والسموات.

واللافت للنظر في الآيات أن النظم القرآني قد آثر مجيئها على هيئة النعت السببي [مختلفاً ألوانه – مختلف ألوانه – مختلفاً ألوانها] حيث جاء اسم الفاعل مضافاً إلى نعته السببي الملحق به ضمير يعود على المنعوت ، في حين جاء النظم القرآني بإضافة المصدر إلى كلمة اللون في آية واحدة (...وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ...) حيث الإضافة غير المحضة والتي تفيد ثبوت الصفة وتأكيدها.

وإذا تأملنا سياق الآيات فإن أول ما يلقانا منها هو قوله تعالى:

١- (وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ) حيث وردت الآية الكريمة في سياق التدليل على دقة الصنع والحكمة لله – تعالى – ممزوجة بامتنانه على خلقه من أول قوله – تعالى –: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ .... ﴾ الآيات من (١٠ – ١٣) النحل. يقول الزمخشري: وقوله: (وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ ...) " معطوف على الليل والنهار يعني ما خلق فيها من حيوان وشجر وثمر وغير ذلك مختلف الهيئات والمناظر ، وهو دليل على دقيق الصنع والحكمة" [١]

ويفهم من كلام الزمخشري أن الآية أجملت ما جاء مفصلاً في الآيات السابقة من الأشياء التي امتن الله بها على عباده وجعلها من المخلوقات الأرضية ، ثم زيد فيها وصف اختلاف ألوانه ، وهي زيادة للتعجيب وداخلة في الامتنان.

ولكون محل الاستدلال هو اختلاف الألوان مع اتحاد أصل الذرء أُفردت الآية في قوله: (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً) ، كما نيط الاستدلال باختلاف الألوان بوصف التذكير ؛ " لأنه استدلال يحصل بمجرد تذكر الألوان المختلفة إذ هي مشهورة" [٢]

١- يراجع: الكشاف ، جـ/٢ ص ٥٧٤.

٢- يراجع: التحرير والتنوير جـ/١٤ ، ص ١١٧ – بتصرف.

وثمة سؤال يطرح نفسه وهو ما الحكمة في اختلاف فواصل الآيات في قوله: (لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) وقوله: (لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) وقوله: (لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ) طالما أن الآيات يجمعها سياق واحد وهو التدليل على دقة الصنع والحكمة والامتنان بنعم الله على خلقه؟ ولماذا خص الآية التى امتن الله بها على عباده بما ذرأه في الأرض مختلفاً الأنواع والأجناس بقوله: (لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ) ؟ ويجيب الفخر الرازي عن ذلك فيما نقله عن الإمام ابن عاشور فيقول: " يرجع ذلك إلى مراعاة اختلاف شدة الحاجة إلى قوة التأمل بدلالة المخلوقات الناجمة عن الأرض يحتاج إلى التفكر وهو إعمال النظر المؤدي إلى العلم ، ودلالة ما ذرأه الله في الأرض من الحيوان محتاجة إلى مزيد تأمل في التفكير والاستدلال على اختلاف أحوالها وتناسلها وفوائدها. فكانت بحاجة إلى التذكر ، وهو التفكر مع تذكر أجناسها واختلاف خصائصها. وأما دلالة تسخير الليل والنهار والعوالم العلوية فلأنها أدق وأحوج إلى التعمق عبّر عن المستدلين عليها بأنهم يعقلون. والتعقل هو أعلى أحوال الاستدلال ". [1]

٢- ثم تأتي الآية الثانية لتكشف عن آية الإعجاز الإلهي في اختلاف لون العسل الذي يخرج من بطون النحل فيه شفاء للناس ، قال تعالى: (...يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ...) النحل: (٦٩).

١- التحرير والتنوير ، جـ/١٤ ، ص ١١٨.

ونظرة متأملة في الآية تريك أنها جاءت في سياق الامتنان على عباده بإيحائه إلى النحلة أن تتخذ البيوت من الجبال والشجر والأكل من كل الثمرات ، وكذلك تكوين العسل المختلف الألوان في بطونها ، وهذا من تمام المنة والعبرة.

والملاحظ أن الآية وردت في سياقها مترتبة على الامتنان بإلهام النحل للأكل من الثمرات (... ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ...) حيث تكوين العسل في بطونها ، ومن ثمَّ يخرج العسل من بطونها مختلف الألوان والأشكال. وعليه فقد جاءت الآية: (... يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ...) مستأنفةً استئنافاً بيانياً لشبه كمال الاتصال ؛ لأن ما تقدم من الخبر عن إلهام النحل تلك الأعمال يثير في نفس السامع أن يسأل عن الغاية من هذا التكوين العجيب ، فيكون مضمون الجملة (يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ ...) بياناً لما سأل عنه. وهو أيضاً موضع المنَّة كما كان تمام العبرة. هذا وقد جاءت كلمة (اللون) بمدلولها العام ، المراد منه: التنوع والاختلاف في الشيء الواحد وهو عسل النحل ، وذلك في قوله: (مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ) فقد ذهب أكثر المفسرين إلى أن المراد من الشراب هو العسل ؛ لأنه مما يشرب ، وأنه مختلف ألوانه ، فمنه الأبيضُ والأسودُ والأصفرُ والأحمرُ " [1]

ويجدر بنا أن نذكر ما قاله الدكتور/ كارم السيد غنيم مفسراً اختلاف الألوان في قوله تعالى: (مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ) أي: " أن هذا الشراب

١- يراجع: تفسير الإمام القرطبى جـ/٦ ص ٣٧٥١ ، والكشاف للزمخشري: جـ/٢ ص ٥٩٢.

أو الأشربة لها ألوان مختلفة ، وقد فهم النـــاس قـــديماً أن الألـــوان المختلفة هنا تعني ألوان العسل ، وهذا فهم صـــائب ، ولكـــن اللغـــة العربية غنية بمكوناتها ، ومن هذه المكونات المعاني المجازية للفظ ، فالألوان في اللغة العربية قد تعني الأنماط والأشكال ..." [1]

نستخلص من هذه السطور أن العسل له ألوانه ، وأغلب آراء العلماء أنها ترجع إلى ألوان الصبغات الموجودة أصلاً في الرحيـــق ، ولكن بعضهم يرى أن مرجع اختلاف الألوان هو اختلاف أنواع السكر الموجود بالعسل ... وربما يفهم – أيضاً – من قوله ســـبحانه (شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ)أي: ألوانه مختلفة عن ألوان الرحيق والغـــذاء عمومـــاً الذي أكلت النحلة منه ، ونحن نعلم أن هذه المواد تخضـــع لعمليـــات تحوُل داخل معدة النحلة. وهذا من تمام إعجاز الله في خلقه.

والمتأمل في الآية يجد أنها قد اتكأت على عدة دقائق أسلوبية تآزرت على بيان المراد من سياق الامتنان والإعجـــاز الإلهـــي فـــي الخلق. ومنها: مجيء الجملة بصيغة الفعل المضارع (يخرج) ؛ وذلك للدلالة على تجدد الخروج وتكرّره ، وكذلك الديمومة وكثرة التلـــبس بالفعل ، نحو قولهم: زيد يعطي ويمنع.

كما آثر النظم الكريم التعبير عـــن العســـل باســـم الجـــنس " الشراب " دون " العسل " ؛ إشارة إلى محل المنَّة وهو الانتفاع بـــه ، وليترتب عليه جملة (... فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ) ، وسمى " شراباً " لأنه مائع

٢- إعجاز القرآن على مر الزمان: أ. د/ كارم السيد غنيم ، ص ١٥٧ – ١٥٨.

يشرب شرباً ولا يمضغ ، كما يلحظ أن وصفه بـــ(مختلف ألوانه) لـــه مدخل في العبرة ودليل على عظيم القدرة ، ودقيق الحكمة.

ومن شواهد بلاغة النظم القرآني في الآية – أيضاً – أن جعل الشفاء مظروفاً في العسل على وجه الظرفية المجازية (فيـــه شـــفاء ...) وهي " الملابسة للدلالة على تمكن ملابسة الشفاء إيـــاه وإيمـــاء إلى أنه لا يقتضي أن يطرّد الشفاء به في كل حالة من أحوال الأمزجة ؛ ولذلك كان مجيء كلمة (شفاء) نكرة في سياق الإثبـــات ، حيـــث لا يقتضي العموم فلا يفهم منه أنه شفاء من كـــل داء ، كمـــا أن مفـــاد (في) من الظرفية المجازية لا يقتضي عموم الأحوال. وعليـــه فإنـــه يفهم من التعريف في قوله (للناس) أنه لا يقتضي العموم الشـــمولي لكل فرد ، بل لفظ (الناس) عمومه بدلي ، والشفاء ثابت للعسل فـــي أفراد الناس بحسب اختلاف حاجات الأمزجة إلى الاستشفاء". [1]

وعلى هذا الاعتبار يحمل ما جاء في الحديث عن أبي ســـعيد الخدري: " أن رجلاً جاء إلى رسول الله – صلى الله عليـــه وســـلم – فقال: إن أخي استُطلق بطنه فقال: اسقه عسلاً. فذهب فسقاه عســـلاً. ثم جاء فقال: يا رسول الله ما زاده إلا استطلاقاً. فقـــال رســـول الله: صدق الله وكذب بطن أخيك. فذهب فسقاه عسلاً فبريء". إذ المعنـــى أن الشفاء الذي أخبر الله عنه بوجوده في العسل ثابت ، وأن مـــزاج أخي السائل لم يحصل فيه معارض ذلك ، كما دل عليه أمر النبـــي –

١– انظر: التحرير والتنوير ، جـــ/١٤ ص ٢٠٩ – بتصرف.

صلى الله عليه وسلم – إياه أن يسقيه العسل ، فإن خبره يتضمن أن العسل بالنسبة إليه باق على ما جعل الله فيه من الشفاء". [1]

قال بعض العلماء بالطب: " كان هذا الرجل عنده فضلات فلما اسقاه عسلاً وهو حارّ تحللت فأسرعت بالإندفاع فزاده اسهالاً ، فاعتقد الأعرابي أن هذا يضره وهو مصلحة لأخيه ، ثم سقاه فازداد التحلل والدفع ، ثم سقاه كذلك ، فلما اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن استمسك بطنه وصلح مزاجه ، واندفعت الأسقام والآلام ببركة إشارته عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام ". [2]

وخلاصة القول إن عسل النحل غذاء ودواء. ولكن ما علاقة ذلك كله بالألوان .. وهي موضوع بحثنا ؟ لا بد وأن هناك علاقة وثيقة بين الشراب (عسل النحل) والألوان ، وإلا لكان القرآن الكريم اكتفى بقوله: (يخرج من بطونها شراب فيه شفاء للناس ...) ، لكنه قال: (شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ...) وأتبعها المولى – عز وجل – بقوله: (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) حيث اختير وصف التفكير – هنا – ؛ لأن الاعتبار بتفصيل ما أجملته الآية في نظام النحل محتاج إلى إعمال فكر دقيق ونظر عميق ، وهي دعوة للتأمل والتفكر في الآية الكريمة.

والمقصد من الآية على ما فهمت – والله أعلم بمراده – أنه يمكن العلاج بالألوان كما هو الحال مع عسل النحل تماماً ، علمًا بأن

٢– التحرير والتنوير ، جـ/١٤ ص ٢١٠.

٣– تفسير ابن كثير: جـ/٢ ص ٥٧٦ ، ط/ دار إحياء الكتب العربية بمصر – القاهرة.

عسل النحل يتلون بلون زهرة النبات التى تمتص النحلة رحيقها. وقد ثبت ذلك في الدراسات والتجارب العلمية الحديثة التي قام بها علماء اللون في أكثر من دولة بالشرق والغرب ، فقد ذكر صاحب كتاب الضوء واللون أمثلة على العلاج بالألوان حيث قال: " فاللون الأصفر مثلاً مهدئ للأعصاب ؛ لذلك يستخدم في علاج المرضى النفسيين ، واللون الأزرق يؤثر على البشرة والأغشية المخاطية والنظام المركزي للأعصاب ، واللون الأخضر الفاتح يعمل على تنشيط الغدد وتخلص الجسم من السموم والفضلات ... إلخ" [1]

٣- وتنقلنا الآيات من بيان القدرة الإلهية في اختلاف أنواع العسل ، إلى إعجازه في اختلاف ألوان البشر يقول تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ الروم: (٢٢). فقد وردت الآية الكريمة في سياق التدليل على عظيم القدرة ، وتفرده – سبحانه – بالوحدانية ، وتصرفه في خلقه ، من حيث إن الاختلاف في ألوان جسم الإنسان من آيات الله الدالة للعالمين على قدرته – سبحانه.

هذا وقد تباينت آراء العلماء في المراد من كلمة (ألوانكم) الواردة في الآية الكريمة ، فقد ذهب الإمام البيضاوي إلى " أن المراد بها المعنى الخاص من بياض الجلد وسواده ، في حين ذهب الشهاب

١- كتاب الضوء واللون: فارسي متري ظاهر- ط/ الأول – دار القلم، بيروت- لبنان – سنة١٩٧٩م، ص٤٩.

الخفاجي إلى أن المراد بها هو المعنى العام ، وهو التنوع والاختلاف في الضروب والأنواع ، كما يقال: ألوان الطعام لأصنافه" [١]

وأرى أن ما ذهب إليه الشهاب هو الأولى بالقبول ؛ لعمومه ولموافقته السياق العام للآية؛ فليست قدرة الله – عز وجل – قاصرة على الاختلاف في البياض والسواد فقط ، بل تعم كل ألوان الاختلافات من الطباع ، والأمزجة والهيئات. ولعموم الحكمة من هذا الاختلاف وهي: "تحقيق التعارف ، وعدم اللبس بين الناس مما يؤدي إلى تعطيل أمور كثيرة". [٢]

وهذا ما اكُتشف مؤخراً ، فقد أثبت العلم الحديث أن ثمة اختلافات بين البشر لا حصر لها ومنها اختلاف البصمة ، والنظرة ، ونغمة الصوت ... إلخ.

ويفهم من الآية أن السبب في اختلاف ألوان البشر هو خلق السموات والأرض وما فيه من أسرار. ويشير صاحب الظلال إلى ذلك فيقول: " ومع آية خلق السموات والأرض عجيبة اختلاف الألسنة والألوان .. بين بني الإنسان. ولا بد أنها ذات علاقة بخلق السموات والأرض. فاختلاف الأجواء على سطح الأرض واختلاف البيئات ، ذلك الاختلاف الناشئ من طبيعة وضع الأرض الفلكي ذو علاقة باختلاف الألسنة والألوان ، مع اتحاد أصل النشأة في بني الإنسان".[٣]

٢- يراجع: تفسيري البيضاوى ، وحاشية الشهاب عليه ، جـ/٧ ص ١١٧.

٣- يراجع: الكشاف جـ/٣ ص٤٥٨.

٤- في ظلال القرآن: جـ/٥ ص ٢٧٦٤.

ويفهم من كلامه أن من أسباب اختلاف ألوان البشر هو بُعد الناس وقربهم من الشمس ، وكأنه يلمح إلى المعنى الخاص لكلمة (اللون) وهو السواد والبياض.

والملفت للنظر في الآية الكريمة أن النظم القرآني آثر مجيء (الألوان) وقد أضيف إليها المصدر " اختلاف " وهي الوحيدة في القرآن ، وفيه دلالة على الثبوت والدوام ، واستمرار هذه الآية العجيبة في خلقه ، وفيه إشارة إلى استحضار هذا الإعجاز الإلهي من تنوع الألوان واختلاف الصور والهيئات ، حيث يختص كل إنسان بهيئة غير هيئة صاحبه ، وسحناء غير سحنائه مع كثرة عددهم ؛ وذلك تنبيه على سعة قدرته – سبحانه.

٤ ، ٥ – وتأتي الآيتان الرابعة والخامسة من آيات الألوان بمدلولها العام ، لتكشفان عن جمال وبهاء الطبيعة الكامن في تزيينها بالألوان ، وتلك واحدة من المعجزات الإلهية الباهرة ، والآيات الكبرى التي تتجلى فيها قدرة الخالق – تبارك وتعالى – ، في بديع صنعه وكمال خلقه.

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ فاطر: (٢٧ – ٢٨)

فالآيتان تلفتان أنظارنا ، وتقرران في نفوسنا حقيقة – ربما نغفل عنها – ، وهي تزيين الله – عز وجل – للثمار والجبال ، والناس والدواب بالألوان المختلفة ، كما تدعونا إلى التأمل الحق

والرؤية ببصر العين وبصيرة العقل ، فإذا حدث ذلك أدَّى إلى الاعتبار والخشية الواعية.

وكلمة الألوان في الآيتين يراد بها الأجناس أو الأوصاف أو الهيئات من الثمار والنبات وكذا التنوع والاختلاف في أصناف البشر وأجناس الدواب.

يقول الشيخ زادة في الآية الأولى: " الألوان الأجناس كالرمان والتفاح والعنب ونحوها ، ولكل منها أصناف معلومة ، وكيفيات مبصرة يصح تفسير لفظ الألوان بكل واحدة منها لغة...".[١]

ومهما يكن من أمر فإن مقام الآية الأولى هو الحث والتحريض على النظر في عجائب صنعه وآثار قدرته ؛ ولذا فقد جاءت على نمط من النظم الفريد والإعجاز البلاغي الدقيق ، فمجيئها بصيغة الجملة الفعلية (أنزل – فأخرجنا) لتأكيد حقيقة إنزال الماء وإخراج الثمرات ، وتجددها آناً بعد آن ، وكذا الالتفات من الغيبة إلى التكلم ؛ لمناسبة الاسم الظاهر لمقام الاستدلال على القدرة ، (...أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ) ولما في ضمير المتكلم من مناسبة الامتنان (فأخرجنا) ، ولما في مجموع الالتفات من تنشيط الذهن ، ولفت الانتباه إلى هذه الحقيقة الباهرة. وكذلك تقديم الاعتبار باختلاف أحوال الثمرات: (... فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ ...) "لأن في اختلافها سعة تشبه اختلاف الناس في المنافع والمدارك والعقائد " [٢] فنظرة متأملة في عجيبة اختلاف ألوان الثمرات تحقق الاعتبار بعجائب

١- حاشية الشيخ زادة علي البيضاوي جـ/٤ ص ١٠٩.

١- التحرير والتنوير: جـ/٢٢ ص ٣٠١.

صنعه – تعالى – وآثار قدرته ، فنوع واحد من الثمرات كالنخيل نجد أنها أكثر الثمرات ألواناً ؛ فإن ألوانها تختلف باختلاف أطوارها ، فمنها الأخضر والأصفر ، والأحمر والأسود ، وكذلك الاعتبار بقدرة الله – تعالى – في اختلاف ألوان الأصناف من النوع الواحد ، كاختلاف أنواع التفاح مع ألوان السفرجل ، وألوان العنب مع ألوان التين ، واختلاف ألوان الأفراد من الصنف الواحد تارات ، كاختلاف ألوان التمور ، والزيتون والأعناب والتفاح والرمان. ألا يدل ذلك على سعة قدرته وبديع صنعه؟ بلى ، فسبحان من كان هذا خلقه!! ومن كان هذا كلامه!! ثم تأمل الإيجاز الذي آثره النظم القرآني في تجريد كلمة (مختلفاً) من علامة التأنيث مع أن فاعله جمع (ألوانها) وشأن النعت السببي أن يوافق مرفوعة في الإفراد والجمع والتذكير والتأنيث، ولا يوافق في ذلك منعوته ؛ " وذلك لأنه لما كان الفاعل جمعاً لا يعقل وهو الألوان كان حذف التاء في مثل جائزاً في الاستعمال ، وآثره القرآن إيثارًا للإيجاز" [1]

وبعد أن حققت الآية إيضاح هذه الحقيقة في الثمار والجبال تأتي الآية الثانية ؛ لتكشف عنها فيما هو أعجب من ذلك من الناس والدواب والأنعام ، وأن هذا الاختلاف هو سنة الله في خلقه. يقول ابن كثير: " ... فالناس منهم بربر وحبوش في غاية السواد ، وصقالية وروم في غاية البياض ، والعرب بين ذلك ، والهنود دون ذلك ، وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان حتى في الجنس الواحد

٢- التحرير والتنوير: جـ/٢٢ ص ٣٠٢.

بل النوع الواحد منهم مختلف الألوان بل الحيوان الواحد يكون أبلق فيه من هذا اللون ومن هذا اللون ، فتبارك الله أحسن الخالقين". [1]

والمتأمل في الآيتين يجد أنهما قد وردا في سياق واحد ، ولكن ثمة مفارقة وموافقة بينهما في النظم. وأول ما يطالعنا من ذلك المفارقة النظمية بينهما في صياغة البداية لكل منهما، فقد جاءت الآية الثانية (ومن الناس والدواب والأنعام...) بصيغة الجملة الاسمية ، على حين جاءت الآية الأولى بصيغة الفعلية (... أنزل ... فأخرجنا) ؛ " وذلك لافادة الثبوت والدوام مع اختلاف ألوان الناس والدواب والأنعام ، والتجدد والحدوث في اختلاف ألوان الثمار والجبال ؛ لأن اختلاف ألوان الناس والحيوان الدال على اختلاف أحوال الإيجاد اختلافاً دائماً لا يتغير ، وإنما يحصل مرة واحدة عند الخلق ، وعند تولد النسل" [2] وأما الثمرات فإن اختلاف ألوانها يتجدد آناً بعد آن. وتتجلى الموافقة بينهما في صياغة الجملة الاسمية في قوله: (....مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَا ....) ، (...مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ...) ؛ وذلك لأن آية اختلاف الألوان من الأجناس والأنواع ، والأصناف والهيئات دائمة ثابتة في سائر المخلوقات، فعلينا التدبر والاعتبار في كلام خالق الأرض والسماوات.

ثم تدبر بلاغة إيجاز القصر في بداية الآية بقوله: (ومن الناس...) حيث يعطي غزارة في المعنى مع قلة ألفاظه ، وذلك لأن المراد: " ومنهم بعض مختلف ألوانه ، كاختلاف الثمرات والجبال ،

٣- تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ/٣ ص ٥٧١.

١- التحرير والتنوير: جـ/٢٢ ص ٣٠٣.

حيث جاءت (من) تبعيضية ، فالمختلف ألوانه بعض من الناس ، ومجموع المختلفات كله هو الناس كلهم ، وكذلك الدواب والأنعام".[1]

وفي ختام الآية – أيضاً – استنتاج مما سبق وهو قوله (كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا) فإذا كان الناس مختلفين في ظواهرهم المشاهدة من اختلاف ألوانهم ، فإنهم – أيضاً – مختلفون في أحوال قلوبهم ومداركهم. ومن ثم فإنه يدفع عن النبي – صلى الله عليه وسلم – حزنه من عدم انتفاع المشركين بالقرآن ، فأحوال الناس مختلفة في قبول الهدى ورفضه.

٦– ثم تأتي الآية السادسة – من آيات الألوان بمدلولها العام – في سياق بيان عظيم قدرة الله – عز وجل – وانفراده بالتصرف في خلقه متمثلاً في تنوع وتعدد الزرع في أصنافه وهيئآته، قال تعالى: ﴿ ... ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ... ﴾ الزمر (٢١). أى: " مختلف هيئآته من خضرة وحمرة وصفرة فبياض وغير ذلك ، وأصنافه من برّ وسمسم وغيرها". [2] وعليه فإن اختلاف ألوان الزرع بمعناه العام يعني: " أن لكل نوع من الزرع لوناً ولنْورها ألواناً ، ولكل صنف من الزرع ألوان مختلفة في أطوار نباته وبلوغه

٢– انظر: الكشاف جـ/٣ ص ٥٩١ ، ٥٩٢ ، والتحرير والتنوير جـ/٢٢ ص ٣٠٣.

٣– انظر: الكشاف جـ/٤ ص ١١٧ ، والبيضاوي بهامش حاشية الشيخ زاده جـ/٤ ص ١٩٩.

أشدُّه ، وهذا الاختلاف مع اتحاد الأرض التي تنبت فيها واتحاد الماء الذي ينبت به آية على عظيم القدرة والإنفراد بالتصرف".[1]

وصفوة القول: أن اللون بمدلوله العام والمراد منه التنوع بين المخلوقات ، من نبات ، وحيوان ، وإنسان وجماد ، هو سنة الله – عز وجل – في مخلوقاته وآية من آيات قدراته. وأن هذا المعنى الرائع الشامل لكل ما سبق قد أشار إليه دقة النظم القرآني ، وإعجازه البلاغي في قوله: (مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ) ، (مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَا) ، (وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ) حيث اسمية الجملة ، والإضافة غير المحضة ، والمفاد منها ثبوت الصفة وتأكيدها ، والديمومة لقدرة الله المطلقة ، وانفراده – تعالى – بالتصرف في خلقه.

٤– انظر: التحرير والتنوير جـ/٢٣ ص ٣٧٨.

المحور الثانى
الألوان بمدلولها الخاص في الدنيا والآخرة

استخدم القرآن الكريم معظم الألوان الأساسية المحددة كالأبيض والأسود والأخضر والأزرق والأحمر ، سواء أكان الموصوف بها في الدنيا أم في الآخرة.

ومن ثم فإنه يترتب على هذا الاستخدام تحديد الموصوف بهذه الألوان ، وتعيين هويته وملامحه كما هو الواقع بالنسبة للمحسوس في الدنيا وتقريب المفهوم وتجسيده خاصة إذا تعلق الأمر بما لا يقع تحت إطار الحس أو ما يخرج عن نطاق الحياة الدنيا.

هذا ومما يلفت الأنظار ويسترعي الانتباه ، بلاغة القرآن العظيم في تقسيمه للألوان وسلكها في نظم فريد وسياقات قرآنية متعددة ؛ ولذلك كانت دراستي للألوان بمدلولها الخاص حسب مرات ورودها في القرآن ، مع تبيان بلاغتها في سياقها.

وكان ترتيبها كالتالي:

١. اللون الأبيض ونقيضه الأسود.

٢. اللون الأخضر.

٣. اللون الأصفر.

٤. اللون الأزرق.

٥. اللون الأحمر.

أولاً: اللون الأبيض ونقيضه الأسود ودلالتهما في الدنيا والآخرة

اللون الأبيض هو أصل الألوان ، ويرتبط في الثقافة العربية بالطهر والبراءة ، وهو لون مصاحب للنور والصفاء ، ويطلق على من يخصل خصلة حميدة ، قال الأخطل:

رأيت بياضاً في سواد كأنه بياض العطايا في سواد المطالب

وأحياناً أخرى ، كانوا يريدون بالبياض طلاقة الوجه وبشره ، وقد جعل الله تعالى البياض علامة حسن المصير في الآخرة ، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ آل عمران: (١٠٦ – ١٠٧).

وعلى النقيض يكون اللون الأسود المشاكل للظلام وما فيه من قتامة وهواجس ، ومن ثمّ فإنه يكدر الروح ويعمى القلوب ، وهو عند المسلمين لون الكفر والضلال ، وسوء الحال والمآل في الآخرة ، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ الزمر: (٦٠) ، كما يدل اللون الأسود في الأدبيات العربية على معانٍ أخرى منها: العبوس والغيظ لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ النحل: (٥٨). وكما يعبر به عن الخوف والمهلكات كالحروب حيث يسود وجه المقاتل خوفاً وهلعاً ، قال الشاعر:

ما أن ترى الأحساب بيضاً وضحاً إلا بحيث ترى المنايا سودا

والملاحظ أن القرآن الكريم في استخدامه للأبيض والأسود ، يذكرهما منفردين في الدنيا والآخرة ، وتارة يذكرهما متتابعين لكونهما نقيضان.

١- اللون الأبيض منفرداً في الدنيا:

ذكر القرآن الكريم اللون الأبيض منفرداً والموصوف به في الدنيا في خمس آيات ، وهي:

١. ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ الأعراف: (١٠٨).

٢. ﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴾ طه: (٢٢).

٣. ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ النمل: (١٢).

٤. ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ القصص: (٣٢).

٥. ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ يوسف:(٨٤)

فاللون الأبيض في الآيات جاء منفرداً والموصوف به في الدنيا ، كما ورد في الآيات الأربع الأولى مفرداً مؤنثاً على وزن " فعلاء " بيضاء وصفاً ليد سيدنا موسى ، كما وقعت في جملة هي حال " لليد " حيث كانت من معجزات سيدنا موسى – عليه السلام – ،

فالسياق الذى ورد فيه اللون الأبيض إذن بيان لقدرة الله الباهرة في تأييده لكليمه – عليه السلام – بهذه المعجزة ، وتنزيهة من الأمراض والآفات ، فقد روى " أنه أرى فرعون يده ، وقال: ما هذه؟ قال: يدك. ثم أدخلها جيبه وعليه مدرعة صوف ، ونزعها فإذا هي بيضاء بياضاً نورانياً غلب عليها شعاع الشمس ، وكان موسى – عليه السلام – آدم شديد الأدمة "[1]

ويلحظ أن قوله: (للناظرين) فيه دلالة تعجب من شدة البياض ، وتتميم لمعنى البياض. يقول ابن عاشور: " بياضاً يراه الناظرون رؤية تعجب من بياضها ، فالمقصود من قوله (للناظرين) تتميم معنى البياض " [2] وفيها أيضاً إعلان مبادأة موسى لفرعون بالسلام والأمان إن اتبع عبادة الرحمن ، فالبياض من صفاء القلب ونقاء والسريرة.

وفي مجيء (بيضاء) بعد " إذا " الفجائية دلالة على حدوث الأمر من غير ترقب ، وفيه إشارة إلى زيادة التأييد لموسى – عليه السلام – بهذه المعجزة.

والمتأمل في الآيات الثلاث من سور [طه – النمل – القصص] يجد أن النظم القرآني آثر مجيء قوله (مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ) مكرراً فيها ، وهو من قبيل الكناية عن البرص. قال الزمخشرى: " السوء: الرداءة والقبح في كل شيء ، فكني به عن البرص ، كما

١– الكشاف ، للزمخشرى ط/الأولى – بيروت سنة ١٩٩٥م ، جـ/٢ ص ١٣٤.
٢– التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور جـ/٨ ص ٤٠.

كنى عن العورة بالسوأة. والبرص أبغض شيء إلى العرب ، وبهم عنه نفرة عظيمة " [1]

كما أن في (مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ) احتراساً بلاغياً ، وهو: " أن يؤتى بشيء يرفع توهم غير المراد " [2] فلو اقتصر على قوله: (بيضاء) لأوهم أن ذلك من برص ؛ ولذلك احترس بقوله: (مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ) أى: من غير مرض وهو شامل لكل أنواع الآفات ، ومن ثمّ فإن له موقعاً بلاغياً فريداً ، حيث يؤكد الغاية من السياق ، وهو تنزيه سيدنا موسى عن الأمراض والآفات ، وتأييده بالمعجزات.

ومن الملاحظ أن النظم القرآني قد آثر لفظ " اليد " موصوفة باللون الأبيض ، دون غيرها من أعضاء الجسم ؛ لما فيها من معنى التأييد ، فهذه المعجزة كانت تأييداً له – عليه السلام – ودلالة على صدقه.

ومهما يكن من أمر فقد ورد اللون الأبيض في تلك الآيات مراداً به اللون الحقيقي ، وذلك في وصف " يد " سيدنا موسى – عليه السلام – والمقصود بها المعنى الحقيقي – أيضاً (اليد الحقيقية) ؛ وذلك في سياق الأمر الإلهي لسيدنا موسى – عليه السلام – بقوله: (واضمم – وأدخل – واسلك – ونزع) فالأمر بالضم والإدخال والسلك ، وحدوث النزع قد تعلق باليد الحقيقية والموصوفة بالبياض الحقيقي ؛ لأن الأمر متعلق بالمعجزة ، وهذه الخوارق لا بد وأن تقوم على الحقائق المقررة ؛ حتى تكون أشد إفحاماً للخصم.

٣- الكشاف ، جـ/٣ ص ٥٨.

٤- الإيضاح للخطيب القزويني ، ص ١٤٤.

ونستخلص مما سبق بأن اللون الأبيض في الآيات السابقة قد ورد بمعناه الحقيقي ، وجاء موحياً بالصفاء والنقاء والطهارة وسطوع الحجة.

ويأتي اللون الأبيض في الآية الخامسة بدلالة وصياغة مخالفتين لما سبق ، حيث أُريد به محق إبصار العين ، حتى كأنها صارت بيضاء لا أثر لسواد القرنية بها ، وورد بصياغة الفعل (ابيضت) على وزن (افعّلت) ، قال تعالى: ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ يوسف: (٨٤). فقد كشفت الآية الكريمة عن حال سيدنا يعقوب – عليه السلام – وما أصابه من الحزن والتحسر على يوسف – عليه السلام – ، فالحزن هو سبب في تبديل لون سواد العينين من الهزال ؛ حيث يؤدي إلى كثرة البكاء الذي هو سبب ابيضاض العينين ، وعليه فإن اللون الأبيض على حقيقته ، لأن المراد ببياض العين – هنا – هو محق سوادها ، ومن كثرة الحزن صارت بيضاء كلها* ؛ ولذا فقد جاء التعبير القرآني بقوله: ابيضت عيناه " دون " عميت عيناه ".

ومن العلماء من ذهب إلى أن اللون الأبيض في الآية ليس على حقيقته ، وإنما هو كناية عن عدم الإبصار ، وأن الحزن هو السبب لعدم الإبصار كما هو الظاهر من الآية ؛ لأن توالي إحساس الحزن على الدماغ قد أفضى إلى تعطيل عمل عصب الإبصار ، وعليه فالمراد من قوله: (وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ) أي: فقد بصره ، قال المفسرون: "

* وهذا ما يسمى عند الأطباء بالماء الأبيض الذي يحجب الرؤية والإبصار عن القرنية.

إن يعقوب – عليه السلام – فقد بصره من شدة حزنه على يوسف ، وبقى لا يبصر ست سنوات حتى كشف الله عنه الضرّ بقميص يوسف ، واستدلوا بقوله تعالى: (... أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا) " [1]

وأرى أنه لا مانع من الاحتمالين ؛ لأن في السياق إشارة إلى ذلك ، وأن البياض الحقيقي للعين هو دليل على ضعف الإبصار وعلى العمى ، وأن من (ابيضت عيناه) وتبدل سوادها فهو لا يرى.

قال الزمخشري: " إذا كثر الاستعبار محقت العبرة سواد العين وقلبته إلى بياض كدر. قيل: قد عمى بصره. وقيل: كان يدرك إدراكاً ضعيفاً " [2].

ويتضح لنا مما سبق أن التعبير القرآني (وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ) يدل على الضعف الشديد الحادث للعينين أو العمى نتيجة الحزن الشديد ، ومن ثمّ فإن اللون الأبيض قد ارتبط بأمر مكروه؛ ولذا فقد خالف دلالته الأصلية ؛ ليتناغم مع السياق والمقام حيث الأحزان والآلام.

وعليه فإن اللون الأبيض في الآية الكريمة ، بدلالتيه الحقيقية والمجازية قد تآزر مع السياق لإبراز حالة الحزن والتحسر والأسف من سيدنا يعقوب على فراق يوسف عليه السلام.

١- انظر: تفسير أبي السعود. جـ/٣ ص ٨٨ ، والتحرير والتنوير. جـ/١٣ ص ٤٣ ، صفوة التفاسير. جـ/١٣ ص ٦٤.

١- الكشاف للزمخشري. جـ/٢ ص ٤٧٨.

ب- اللون الأبيض منفرداً في الآخرة

ورد اللون الأبيض منفرداً في الآخرة ، وذلك في سياق تعداد نعيم أهل الجنة في آية واحدة في القرآن الكريم وهي قوله تعالى: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴾ الصافات: (٤٥ – ٤٦) فقد جاء اللون الأبيض (بيضاء) على وزن " فعلاء " وصفاً لخمر أهل الجنة ، " فقد روي أن خمر الجنة أشد بياضا من اللبن .. وقيل: بيضاء أي: لم يعتصرها الرجال بأقدامهم ، وقيل: لونها مشرق حسن بهي لا كخمر الدنيا في منظرها البشع الرديء من حمرة أو سواد أو اصفرار أو كدورة إلى غير ذلك مما يبغضه الطبع السليم "[1]. ومن المفسرين من رجَّح كون اللون الأبيض في قوله " بيضاء " وصفاً لكأس خمر أهل الجنة" [2].

وأرى أن الوصف باللون الأبيض في الآية الكريمة يصلح لكل من الخمر والكأس معاً ؛ وذلك من شدة النقاء والصفاء صارت الكأس خمراً ، والخمر كأساً ، وفي مثل هذا يقول الشاعر في وصف خمر الدنيا وكأسها:

رقّ الزجاجُ وراقتْ الخمر فتشابها وتَشَاكلَ الأمر

فكأنما خمر ولا قدحٌ وكأنما قدح ولا خمر

٢- انظر: القرطبي ، جـ/٨ ، ص ٥٥٢٢ ، وتفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ، جـ/٤ ص ٦.

٣- يراجع: الطبري ، جـ/١٠ ص ٤٨٤ ، والكشاف للزمخشري ، جـ/٤ ص ٤١.

هذا في خمر الدنيا وكأسها ، فما بالك بخمر الآخرة ، والتي يقول الله – تعالى – فيها: ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ الصافات: (٤٧) فإنها أشد بياضاً وكأسها أشد صفاءً.

ومن ثمّ فاللون الأبيض في الآية يوحي بشدة الصفاء والنقاء سواء أكان للكأس أم للخمر؛ وذلك زيادة في التنعم بهما ، وتحريك للنفس البشرية إلى المسارعة والسباق إلى هذا النعيم. ولذا فقد أدى اللون الأبيض للخمر أو الكأس دوراً مهماً في إبراز تميز خمر الآخرة عن خمر الدنيا ، كما أبرز نوعاً من النعيم الذى أعده الله لأهل الجنة.

جـ– اللون الأسود منفرداً في الدنيا:

ورد اللون الأسود منفرداً في الدنيا ، ويراد به الحزن والأسى والغم والكآبة ، وذلك في آيتين اثنتين من القرآن الكريم وهما:

١. ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ النحل: (٥٨)

٢. ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ الزخرف:(١٧)

فقد وردت آية النحل في سياق الكشف عن عادات الجاهلية المنكرة من بعضهم للبنات وازدياد غمهم وحزنهم إذا ما علم أحدهم بولادة البنت ، وكذلك ظلمهم للمرأة إذ يعاملونها كما لو كانت ولادة الذكور باختيارها ، وهذا من جاهليتهم الجهلاء.

وهكذا فإن السياق يرسم صورة منكرة لعادات الجاهلية ، وهي صورة اسوداد وجوههم من الهم والحزن والضيق ، وكظم الغيظ من ولادة الأنثى ، وهي هبة من الله كالذكر.

وتأتي آية الزخرف في سياق الإنكار على المشركين عبادة الملائكة ، وإبطال زعمهم أنها بنات الله ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ ﴾ الزخرف: (١٦) في حين أنهم يستنكفون من ولادة البنات لهم ، بل ويسود وجه أحدهم من السوء والغم إذا ما بشر بولادة الأنثى له. قال ابن كثير: (.... وهذا إنكار عليهم غاية الإنكار) [١]

وعليه فقد جاءت آية الزخرف مبينة لحال أحدهم إذا قيل له: قد ولدت لك بنت اغتم واربّد وجهه غيظاً وتأسفاً وهو مملوء من الكرب ، قال الفخر: " والمقصود من الآية التنبيه على قلة عقولهم وسخافة تفكيرهم ، فإن الذي بلغ حاله في النقص إلى هذا الحد كيف يجوز للعاقل إثباته لله تعالى ! "[٢]

وعلى هذا فقد جاء قوله (ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا) بمعنى: صار وجهه متغيراً من الغم والحزن وأن اسوداد الوجه جاء بطريق الكناية. قال القرطبي: " وهو كناية عن الغم والحزن وليس يريد السواد ، والعرب تقول لكل من لقي مكروهاً: قد اسوّد وجهه" [٣].

١- مختصر ابن كثير ، جـ/٣ ص ٢٨٦.

٢- التفسير الكبير للفخر الرازي ، جـ/٢٧ ص ٢٠١.

١- القرطبى ، جـ/١٠ ص ١١٦.

ويقول أبو السعود: "واسوداد الوجه كناية عن الاغتمام والتشويش." (١)

وربما يسأل سائل لماذا جُعل اسوداد الوجه كناية عن الغم والحزن والكآبة؟ ويجيب الإمام الرازي على ذلك قائلاً: " إنما جعل اسوداد الوجه كناية عن الغم ؛ وذلك لإن الإنسان إذا قوي فرحه انشرح صدره وانبسط روح قلبه ، ووصل إلى الأطراف ، ولا سيما إلى الوجه لما بينهما من التعلق الشديد. وإذا وصل الروح إلى ظاهر الوجه أشرق الوجه وتلألأ واستنار ، وأما إذا قوي غم الإنسان واحتقن الروح في باطن القلب ، ولم يبق منه أثر قوي في ظاهر الوجه ، فلا جرم يربد الوجه ويصفر ويسود ويظهر فيه أثر الأرضية والكثافة ، فثبت أن من لوازم الفرح استنارة الوجه وإشراقه ، ومن لوازم الغم كمودة الوجه وغبرته وسواده ؛ فلهذا السبب جعل بياض الوجه وإشراقه كناية عن الفرح ، وغبرته وكمودته وسواده كناية عن الغم والحزن والكراهية ؛ ولهذا المعنى قال: ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي: ممتلئ غماً وحزناً"(٢)

ويفهم من كلامه أن اسوداد الوجه يأتي من شدة الغضب والغيظ إذ يصعد الدم إلى الوجه فتصير حمرته إلى سواد. وربما يستقيم تفسير الإمام الرازي لهذه الظاهرة ؛ إذا أخذنا بالنشاط الفسيولوجي للجسم في حالات الفرح والحزن عندما يصدر الدماغ أوامره للقلب بضخّ المزيد من الدماء في الوجه في حالة الفرح

٢- أبو السعود ، جـ/٢ ص ١٢١.

٣- التفسير الكبير للفخر الرازي ، جـ/٢٧ ص ٢٠٢.

والسرور فيتورد ويشرق ، ونلاحظ ازدياد نبضات القلب في حالة الفرح ، في حين تنخفض النبضات في حالة الحزن والغم ليصل حد أدنى من الدماء إلى الوجه فتبدو الأوردة وكأنها خالية فتضفي مظهراً باهتاً بائساً على الوجه.

ومن ثمّ فقد استعمل النظم القرآني اسوداد الوجه في قوله (ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا) في لون الكئيب إذ ترهقه غبرة فشبهت بالسواد مبالغة أي: " صار وجهه كأنه أسود من الكآبة والحزن وهو ممتلئ غيظاً وغماً من سوء ما بشر به". [1]

واللافت للنظر في الآيتين هو نظمهما البلاغي المعجز ، والذي من شأنه أن يؤكد ما أفاده السياق من الإنكار والتهكم من المشركين.

وأول ما يطالعنا من هذا النظم هو التعبير القرآني عن الإعلام بولادة الأنثى بقوله: (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ) مما يفيد التعريض بهم إذ يعدون البشارة مصيبة ، وذلك من تحريفهم الحقائق، إذ التعبير من قبيل الاستعارة التهكمية.

وكذلك إيثار التعبير القرآني عن الأنثى بـ"ما" في قوله: (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ...) الزخرف: (١٧) ، وذلك لإسقاطها عن درجة العقلاء ، ولا يخفى ما فيه من التحقير والظلم الواقع على الإناث من جهتهم.

٤- التحرير والتنوير ، جـ/١٤ ص ١٨٤.

وفي الآيتين أيضاً طباق خفي مبني على التدبيج وهو لون من ألوان الطباق يقوم على ذكر الألوان في مواطن المدح أو الذم بقصد الكناية أو التورية ، فالتبشير في الآية فيه معنى الفرح والسرور ، وسواد الوجه فيه معنى الحزن والضجر. فهما متضادان من هذه الناحية المعنوية ، ثم إن ابتناء هذا الطباق على عنصر اللون جعله من باب التدبيج الحسن.

ومن دقائق النظم القرآني في الآيتين إيثاره التعبير بقوله (ظل) بمعنى " صار ، مع أن أكثر الوضع يتفق بالليل ؛ حتى يظل نهاره مغتماً مربد الوجه من الكآبة والحياء من الناس ؛ وذلك لقصد المبالغة في وصفهم بالعناد والإصرار" [1] ومن ثمّ يدوم الغم والحزن على وجوههم في النهار كله مبالغة في الكآبة والغم والحزن. ولأن النهار هو وقت رؤية الناس له في الغالب ، ولوضوح اسوداد وجهه في النهار ؛ ولذا فقد ناسبه التعبير بـ(ظل). ويلحظ – أيضاً – مجيء اللون الأسود على صيغة اسم المفعول (مسوداً) وفيه دلالة على ثبوت ذلك السواد وذلك الغم لمن بشر بالأنثى من المشركين ، كما يوحي بأنه هو الجالب لذلك الغم والحزن ؛ لقلة عقله ولغياب تفكيره حيث إنه لو وقف مع نفسه لتبين له أنها هبة من الله كالذكر تماماً ، وما يملك أن يصور في الرحم أنثى ولا ذكر.

وفي ختام الآيتين بقوله (وَهُوَ كَظِيمٌ) أي: " مملوء حنقاً على المرأة ، والممسك عن الكلام كرباً وحزناً"[2] إشارة إلى أن سواد وجه

١- انظر: الكشاف ، وبهامشه الانتصاف ، جـ/٢ ص ٥٨٨.

٢- مختصر ابن كثير ، جـ/٣ ص ٢٨٦.

أحدهم من السوء قد بلغ حداً يجل عن التصريح به فيكظمه ويكتمه ، وهو يكاد يتميز من السوء !

وعليه فإن الآيتين لم تكتفيا بوصف الوجه بالسواد – حيث وقع (مسودا) خبراً عن (ظل) – بل أضافت إليه ما يعتمل في صدر هذا الإنسان من الغيظ والكمد والإحساس بالعار ، حتى إنه ليتوارى عن الأعين مخافة أن تراه ، ﴿ يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ النحل: (٥٩)

ومما سبق يتبين لنا أن إسوداد الوجه في الآيتين يرتبط بالغم الذي كان يحل بالعربي في الجاهلية عندما تلد زوجه بنتاً. فمن أحوال العرب آنذاك " أن أحدهم إذا قيل له: قد ولدت لك بنت اغتم واربد وجهه غيظاً وتأسفاً وهو مملوء من الكرب. وعن بعض العرب أن امرأته وضعت أنثى فهجر البيت الذي فيه المرأة ، فقالت:

ما لأبي حمزة لا يأتينا يظل في البيت الذي يلينا
غضبان أن لا نلد البنينا ليس لنا من أمرنا ما شينا
وإنما نأخذ ما أعطينا" [1]

ومن ثم فليس المراد بالسواد – هنا – المعنى الحقيقي ، وإنما هو كناية عن غمه بالبنت فالعرب تقول لكل من لقي مكروهاً قد اسوّد وجهه غمّاً وحزناً.

د- اللون الأسود منفرداً في الآخرة

١- انظر: الزمخشري ، جـ/٣ ص ٤٨٦ ، والقرطبي ، جـ/٩ ص ٥٨٩.

ورد اللون الأسود منفرداً في الآخرة كاشفاً عن سوء مصير الذين تكبروا عن دعوة الإيمان ، وكذبوا على الله بنسبة الشريك له والولد فكان جزاؤهم سواد وجوههم يوم القيامة بسبب كذبهم وافترائهم على الله – سبحانه –. قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ الزمر: (٦٠) قال صاحب الظلال: " وهذا هو المصير الأخير. فريق مسود الوجوه من الخزي ومن الكمد ، ومن لفح الجحيم. وهو فريق المتكبرين في هذه الأرض ، الذين دُعوا إلى الله ، وظلت الدعوة قائمة حتى بعد الإسراف في المعصية، فلم يلبوا هاتف النجاة ، فهم اليوم في خزي تسود له الوجوه ".[1] واسوداد وجوه المتكبرين في الآية الكريمة إما على حقيقته فتسود وجوههم سواداً حقيقياً يجعله الله علامة لهم يوم القيامة ، وإما أن يكون من باب الكناية عن سوء المنقلب للمتكبرين في الآخرة أو من قبيل الاستعارة المكنية التخيلية حيث أراد القرآن التعبير عما يصيبهم من الكآبة والحزن بالسواد الذي يظهر على وجوههم. قال الشهاب (وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ): " بما ينالهم من الشدة التي تغير ألوانهم حقيقة إذ لا مانع منه ، أو بما يتخيل عليها من ظلمة الجهل فلا تكون مسودة حقيقة ؛ لكنهم لما يلحقهم من الكآبة ويظهر عليهم من آثار الجهل بالله يتوهم فيهم ذلك فمسودة على هذا استعارة".[2]

٢– في ظلال القرآن ، سيد قطب ، جـ/٥ ص ٣٠٥٩.

١– حاشية الشهاب على البيضاوي ، جـ/٧ ص ٣٤٨.

والذي أراه: أن استعمال اسوداد الوجه على حقيقته للمتكبرين هو الأولى والأبلغ في بيان حالهم والتنكيل بهم ؛ فقد جاءت جملة (وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌ) في موقع الحال من (ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ) ولأن الجزاء من جنس العمل ؛ فلمَّا أرادوا طمس نور التوحيد والإيمان بظلمة الشرك والتكبر ، جزاهم الله بتسويد وجوههم سواداً حقيقياً علامة لهم ينظر إليها الناس ليروا مصيرهم. ولمناسبة السياق والغرض العام من الآية ؛ " إذ المقصود تفضيحهم وتشهير فظاظة حالهم ، ولمناسبة (ترى) في الآية إذ أجمع العلماء أنها بصرية ، فالمناسب جعلها مرئية مشاهدة ، وذلك لرؤية سواد وجوههم ".[1]

والملاحظ في الآية الفصل بين اسوداد الوجوه في قوله: (وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌ) والسبب الذي أودى بهم إلى هذا الجزاء ، وهو قوله: (أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ) ؛ وذلك لشبه كمال الاتصال بين الجملتين ، وكأن هناك سائلاً يسأل عن سبب اسوداد وجوه الكافرين في الآخرة ، فيأتي قوله تعالى: (أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ) مجيباً عن هذا السؤال ، حيث جهنم مثواهم، وأن السواد يناسب ما سيلفح وجوههم من مس النار.

ويلحظ أن الإجابة عن سبب سواد وجوههم جاء بطريق الاستفهام التقريري: (أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ) ؛ " وذلك لتنزيل السائل المقدَّر منزلة من يعلم أن مثواهم جهنم فلا يليق به أن

٢- السابق ، جـ/٧ ص ٣٤٨ – بتصرف – .

يغفل عن مناسبة سواد وجوههم لمصيرهم إلى النار ، فإن للدخائل عناوينها".[1]

وفي الوصف القرآني للذين كذبوا على الله ، فاسودت وجوههم يوم القيامة بـ"المتكبرين" إيماءٌ إلى أن عقابهم بتسويد وجوههم كان مناسباً لكبريائهم ؛ " لأن المتكبر إذا كان سيء الوجه انكسرت كبرياؤه ؛ لأن الكبرياء تضعف بمقدار شعور صاحبها بمعرفة الناس نقائصه".[2]

ومن ثمّ فإن في هذا الوصف تأييداً لكون اسوداد الوجوه على حقيقته ؛ لما فيه من مزيد التنكيل بالمتكبرين. والجزاء من جنس العمل.

هـ- الأبيض والأسود مجتمعان في الدنيا

ورد اللونان الأبيض والأسود مجتمعين في الدنيا في آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿ ...وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ... ﴾ البقرة: (١٨٧) وذلك في سياق بيان وقت الصيام ، قال الفراء: " فقال رجل للنبي – صلى الله عليه وسلم – أهو الخيط الأبيض والخيط الأسود ، فقال النبي – صلى الله عليه وسلم : إنك لعريض القفا ، هو الليل والنهار".[3]

٣- التحرير والتنوير: جـ/٢٣ ، ص ٥١ .

٤- السابق ، جـ/٢٣ ص ٥١ .

١- هو عدي بن حاتم – يراجع: كتاب الصيام للبخاري ، وتفسير الطبري جـ/ ٣ ص ٥١١ ، ورواه أحمد في المسند: ص ٣٧٧ ، ومعاني الفراء: جـ/ ١ ص ١١٥ ، وأسرار البلاغة للإمام عبد القاهر: ص٣٢٠ ، ٣٢١.

ويفهم منه أن المقصود بالوصف بالبياض والسواد – هنا – هو ضوء النهار وعدمه أي ظلام الليل. وعليه فقد جاء التعبير القرآني عن اللونين الأبيض والأسود بطريق الكناية عن النور والظلمة أي: نور النهار وظلمة الليل.

هذا وقد تباينت آراء العلماء حول التعبير القرآني: (.... ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ...) فمنهم من رأى أنه من قبيل الاستعارة التصريحية ، حيث المراد بهما بياض الصبح وسواد الليل ، والخيطان – هنا مجاز ، وشبههما بالخيطين الأبيض والأسود ؛ لأن بياض الصبح يكون في أول طلوعه مشرقاً خافتاً ، ويكون سواد الليل منقضياً مولياً ، فهما جميعاً ضعيفان ، إلا أن هذا يزداد انتشاراً وهذا يزداد استسراراً. ومنهم من رأى أن التعبير القرآني من باب التشبيه التمثيلي ، وذلك لمجيء قوله (مِنَ ٱلْفَجْرِ) بياناً للخيط الأبيض ، وهو المقصود ، وبهذا البيان فقد خرج الخيطان عن الاستعارة إلى التشبيه ؛ لأن شرطها عندهم تناسيه بالكلية "[1]

في حين رأى الإمام الزمخشري والسمين الحلبي أنه من التشبيه البليغ ؛ وذلك لدلالة قوله (مِنَ ٱلْفَجْرِ) على المستعار وشرط المستعار أن يدل عليه الحال أو الكلام. قال صاحب الدر المصون: "وهذا النوع من باب التشبيه من الاستعارة ؛ لأن الاستعارة هي أن

٢– انظر: روح المعاني للألموسي: جـ/ ٢ ص ٦٦ ، وأبو السعود: جـ/١ ص ٢٠٢ ، وصوفوة التفاسير جـ/٢ ص ١٢٣ ، ط. دار الرشيد – حلب – سوريا.

يطوى فيها ذكر المشبه ، وهنا قد ذكر وهو قوله (مِنَ ٱلْفَجْرِ) ونظيره قولك " رأيت أسداً من زيد " لو لم يذكر " من زيد " لكان استعارة".[1]

وما ذهب إليه الزمخشري والسمين الحلبي هو ما أراه وأميل إليه ؛ لكونه من أحسن التشبيهات ، فقد شبه القرآن الكريم أول ما يبدو من الفجر المعترض في الأفق ، وما يمتد معه من غلس الليل بخيطين الأبيض والأسود. *

ولا يخفى الإيجاز البلاغي في التعبير القرآني: (ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ ...) وذلك عن طريق الاكتفاء ، حيث اكتفى به عن بيان الخيط الأسود ؛ وذلك لأنه المقصود أو لأن بيان أحدهما بيان للثاني.

وهكذا فقد أدى اللونان الأبيض والأسود في الآية دوراً مهماً في حياة المسلم الصائم ، حيث كانا علامة على بداية الإمساك للصائم ودليلاً على ذهاب الليل ومجيء النهار.

و- الأبيض والأسود مجتمعان في الآخرة

٣- الكشاف للزمخشري: جـ/١ ص ٢٢٩ ، وانظر: الدر المصون للسمين الحلبي: جـ/٢ ، ص ٢٩٧.

* وهذه ظاهرة تحدث في الكون كل يوم وهي انسلاخ ضوء الصبح الأبيض عن ظلام الليل الأسود ، وعبر عن ذلك بالخيط الأبيض والخيط الأسود. وتأمل قوله تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ يس: ٣٧

ورد اللونان الأبيض والأسود مجتمعين في الآخرة وقد وُصفت بهما وجوه المؤمنين والكافرين ، وذلك في سياق تحذير الجماعة المسلمة من التفرق والاختلاف ، وفي مقام التخويف والتهويل لفريق الكافرين ، والتشويق والترغيب لفريق المؤمنين ، وذلك في آيتين من القرآن الكريم ، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ آل عمران: (١٠٦ – ١٠٧)

جاءت الآيتان بعد صرخة ناشد الله فيها أمة الإسلام بالاعتصام بحبله حتى لا يعودوا إلى ما كانوا عليه من قبل الإسلام والهداية من تفرق وتمزق ؛ لتكون لهم شكيمة وعزيمة ؛ وليصبحوا قوة لها في العيون جلالة ومهابة ، بعد ذلك شوقنا إلى الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة ، وذلك بالأمر بالمعروف والخير بكل صوره ، والنهي عن المنكر بكل صوره ، وفي ظل هذا العطاء المترابط والمتشابك تخرج علينا الآيتان لتقول لكل مسلم: جد واجتهد في الاعتصام ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى تلقى الله بوجه مضيء مشرق بدلاً من أن تكون أسود الوجه عابس الجبين في يوم الدين الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

هذا وقد تباينت أقوال العلماء حول المراد من البياض والسواد في الآيتين هل هما من باب الحقيقة أم من باب الكناية عن البهجة والسرور والكآبة والخوف في الآخرة ؟ فقد ذهب الإمامان البيضاوي وأبو السعود إلى أن بياض الوجه وسواده في الآيتين كنايتان عن

ظهور بهجة السرور وكآبة الخوف فيه[1]. وذهب إلى هذا الرأي – أيضاً – الراغب في مفرداته حيث قال: " فابيضاض الوجوه عبارة عن المسرة ، واسوادها عبارة عن المساءة ، وحمل بعضهم الابيضاض والاسوداد على المحسوس والأول أولى ؛ لأن ذلك حاصل لهم سوداً كانوا في الدنيا أو بيضا ".[2] وعلى ذلك ففي الآيتين طباق التدبيج حيث ذكر في معنى المدح والذم لوني البياض والسواد بقصد الكناية عن السرور والحزن ، وذلك في سياق تصوير ملامح الوجوه يوم نلقى ربا العالمين في اليوم المشهود. حيث تظهر آثار الإيمان والعمل الصالح على قسمات الوجوه مؤذنة بالفرح والسرور. كما تظهر آثار الضلال والكفر على سحنة الوجه مؤذنة بالحزن والكآبة. ولا يخفى الأثر البلاغي للطباق في الآيتين من إظهار البون الشاسع بين حال الفريقين ، فهذه وجوه مشرقة صافية ، وهذه وجوه كاسفة قاتمة.

على حين ذهب الشيخ زاده إلى " أن بياض الوجه وسواده حقيقتان ، حيث يحصلان في وجوه المؤمنين والكافرين حقيقة ، لأنه متى أمكن حمل اللفظ على معناه الحقيقي ، ولم يوجد دليل يوجب صرفه عنه وجب المصير إليه ".[3] ونرى الإمام الألوسي وقد عرض للرأيين مرجحاً الرأي الثاني القائل بحقيقة اللونين وجعله رأي الجمهور ، وذلك في قوله: " والمراد بالبياض معناه الحقيقي أو

١- انظر: البيضاوي بحاشية الشيخ زاده ، جـ/١ ص ٦٥٨ ، وأبو السعود : جـ/٢ ، ص ٦٩.

٢- المفردات للراغب – مادة (سود) ص ٢٤٦.

٣- انظر: حاشية الشيخ زاده: جـ/١ ، ص ٦٥٨.

لازمه من السرور والفرح ، وكذا يقال في السواد ، والجمهور على الأول. "[1]

ومهما يكن فإنه يجوز حمل اللونين في الآيتين على المعنيين الحقيقي والكنائي ، بيد أني أميل إلى جعلهما من قبيل الحقيقة ؛ وذلك لحكمة حيث يجعل بياض الوجه علامة لأهل السعادة يعرفون بها، قال تعالى: ﴿ ... قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾ يس: (٢٦ – ٢٧) ؛ ولما فيه من التشريف لهم ، وإظهار لآثار أعمالهم في ذلك الجمع ، وسواد الوجه علامة على شقاء وكآبة أهل الباطل ؛ تحقيراً لهم وتنكيلاً وتشنيعاً عليهم. ونرى الإمام ابن عاشور يؤكد ذلك قائلاً: " والبياض والسواد حقيقيان يوسم بهما المؤمن والكافر يوم القيامة ، وهما بياض وسواد خاصان ؛ لأن هذا من أحوال الآخرة ، فلا داعي لصرفه عن حقيقته".[2]

ويفهم من كلام ابن عاشور أن بياض الوجوه وسوادها على حقيقته إلا أنهما بياض وسواد خاصان بأحوال الآخرة. وليس كما هما عليه في الدنيا من كونهما لوناً للبشرة ، بل المراد بهما في الآخرة النور والظلمة. النور والبشرى للمؤمنين والظلمة والخزي للكافرين ، قال تعالى: ﴿ يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ ... ﴾ الحديد: (١٢).

٤- روح المعاني للألوسي: جـ/٤ ، ص ٢٥.

١- التحرير والتنوير: جـ/٤ ص ٤٤.

وقال الإمام الزمخشري: " والبياض من النور ، والسواد من الظلمة ، فمن كان من أهل نور الحق وسم ببياض اللون وإسفاره وإشراقه ، وابيضت صحيفته وأشرقت ، وسعى النور بين يديه وبيمينه. ومن كان من أهل ظلمة الباطل وُسم بسواد اللون وكسوفه وكمده ، واسودت صحيفته وأظلمت وأحاطت به الظلمة من كل جانب. نعوذ بالله وبسعة رحمته من ظلمات الباظل وأهله".[1]

وهكذا فقد استخدم القرآن الكريم بياض الوجه للإشارة إلى نقائه وصفائه وإشراقه ، واستخدم سواده للإشارة إلى قتامته وغبرته وكسوفه ، كما جاء بياض الوجه رمزاً للفوز في الآخرة نتيجة للعمل الصالح في الدنيا ، وسواده رمزاً للخيبة والخسران وسوء المنقلب في الآخرة نتيجة للتفرق والاختلاف والعصيان في الدنيا.

ومن ثم فالبياض في الآخرة فخار ، والسواد في الآخرة عار ، وهما معاً في الدنيا متساويان مع سائر الألوان في جلد الإنسان كآية من آيات الله.

والمتأمل في الآيتين يجد أن التعبير القرآني عن البياض والسواد فيهما قد نظم نظماً بديعاً، حيث خص الوجه بالبياض والسواد ، مع أن الظاهر أن الابيضاض والاسوداد يكون لجميع الجسد ؛ وذلك عن طريق المجاز المرسل وعلاقته الجزئية ؛ وذلك لشرف الوجه على سائر الأعضاء ، ولأنه أول ما يلقاك من الشخص ؛ وبه يكون البشر والسرور والكآبة والخوف، وبه يكون التنعيم والتنكيل.

٢- الكشاف: جـ/١ ص ٣٩١.

ومن النظم البديع في الآيتين إيثار صيغة المضارع على غيرها في البياض والسواد: (تبيض وتسود) ؛ وذلك لحكاية حال الناس في هذا اليوم ؛ ولاستحضار هذه الصورة العجيبة من ابيضاض وجوه ، واسوداد وجوه في عقل المخاطب مما يوحي بالتشويق والترغيب لفريق والتهويل والترهيب لفريق آخر.

في حين أتى النظم القرآني بصيغة الماضي في اسوداد الوجوه وابيضاضها ، وذلك في التفصيل للدلالة على تحقق وقوع ذلك البياض والسواد لكلا الفريقين بعد أن تخيل السامع واستحضر هذه الصورة العجيبة ، كما أن صورة الطباق الأولى بالمضارع قدمت نتيجة اختيار العقل البشري إبّان الحياة ، أما الصورة الثانية فقد أبت إلا أن تُطلع المتأمل على نتيجة هذا الخيار ، ومن ثم فقد ناسبها جمع القلة المضاف إلى ضميرهم (وجوههم) لتعلمنا أن النتيجة لا تخرج إلا من مجموع المخاطبين بعد إعلامهم واختيارهم.

وفي مجيء الطباق وتكراره وتغير صيغه من المضارع إلى الماضي يجعلنا أمام كشف حساب صريح مع أنفسنا لنختارما نراه ما صالحاً لها إما بياض الوجوه وإما سوادها.

ومن ثم فنحن نرى مشهداً من المشاهد القرآنية لليوم الآخر زاخراً بالحركة والحيوية ، يرسمه لنا السياق الذي استخدم اللونين الأبيض والأسود متمثلاً في آدميين أحياء في وجوه وسمات.. " فهذه وجوه قد أشرقت بالنور وفاضت بالبشر فابيضت من البشر والبشاشة ، وهذه وجوه كمدت من الحزن واغبرت من الغم ، واسودت من الكآبة ، وليست مع هذا متروكة إلى ما هي فيه وكذلك اللذع بالتبكيت

والتأنيب".[1] وكذلك قدم النظم القرآني ذكر البياض على السواد عند وصف هذا اليوم ؛ وذلك لأن البياض هو شعار أهل النعيم فقدم " تشريفاً لذلك اليوم ؛ بأنه يوم ظهور رحمة الله ونعمته".[2] في حين أن النظم القرآني قدم في التفصيل حال أهل العذاب (فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ ...) ؛ وذلك تعجيلاً بمساءتهم ، " ولما أن المقام مقام التحذير عن التشبه بهم مع ما فيه من الجمع بين الإجمال والتفصيل ، والإفضاء إلى ختم الكلام بحسن حال المؤمنين كما بدئ بذلك عند الإجمال ، فقد استحسن الفصحاء والشعراء أن يكون مطلع الكلام ومقطعه شيء يسر الطبع ويشرح الصدر ؛ فلذلك ابتدأ بذكر أهل الثواب وختم بذكرهم". [3]

وفي وصف يوم القيامة بأنه (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) إجمال مشوق لما يعقبه من تفصيل بذكر أحوال الفريقين: (فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ ...).

ويلحظ أن التفصيل قد سلك فيه طريق اللف والنشر غير المرتب ؛ تنبيهاً على أن إرادة الرحمة أكثر من إرادة الغضب ، كما أن فيه " إيجازاً بحذف جواب أمَّا ، والتقدير: وأما الذين اسودت

١- في ظلال القرآن : جـ/١ ص ٤٤٦.

٢- التحرير والتنوير: جـ/٤ ص ٤٤.

٣- انظر: روح المعاني: جـ/٤ ص ٢٦ ، وأبو السعود : جت/٢ ص ٦٩ ، والشيخ زاده: جـ/١ ص ٦٥٩ ، والتحرير والتنوير: جـ/٤ ص ٤٥.

وجوههم فهم الكافرون ، وأما الذين ابيضت وجوههم فهم المؤمنون".[١]

والملفت للنظر أن النظم القرآني لم يكتف بتسويد الوجوه جزاء للكافرين ، وإنما زادهم من التوبيخ والتنكيل ، وذلك في قوله: (أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ) وهو لون تعبيري يحرك العقل وينشطه ويدعوه إلى أن يفكر في هذا " التأنيب والتوبيخ والتعجيب".[٢] حتى لا يعود إلى الكفر بعد أن هداه الله وكي لا يذوق العذاب الأليم ، وليس هذا فحسب وإنما يقال لهم على سبيل الإهانة أو التسخير (فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ) بطريق الاستعارة التهكمية[٣] وهي لوحة استعارية حافلة بالخيال ، ولم لا والقرينة فيها الاستعارة التخيلية[٤] الممثلة في نسبة الإذاقة إلى العذاب.

هذا ولم يكتف القرآن بتبيض وجوه المؤمنين جزاء لهم ، وإنما أتى بالجزاء الأكبر الذي يستحقونه وهو الاستقرار في جنة الخلد (فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ) بطريق المجاز المرسل وعلاقته الحالية حيث أطلق الحال وهي الرحمة وأراد المحل وهي الجنة.

١- التحرير والتنوير: جـ/٤ ص ٤٤.

٢- الكشاف: جـ/١ ص ٣٩١.

٣- هي نوع من العنادية وحقيقتها: أنها الاستعارة التي استعملت في ضد معناها أو نقيضه لتنزيل التضاد أو التناقض منزلة التناسب بواسطة تمليح أو تهكم. انظر: شرح السعد: جـ/٤ ص ١١٧ ، ١١٨.

٤- انظر: شرح السعد: جـ/٤ ص ١٤٥ ، ١٤٦.

ومن يدقق النظر يرى أن المجازين الاستعارى والمرسل وُضعا في الآية بميزان دقيق الأول جاء إبرازاً لنتيجة من آثر الكفر على الإيمان ، والثاني جاء إعلاناً لنتيجة من فضل ما يرضي الله على هواه وشيطانه.

ومن ثم فها هو دستور الله الذي ندين له ونؤمن به ، ولفصاحته وبلاغته نسجد ، ودون أدنى تحيز أشعر وكأنني أمام لوحة بلاغية متكاملة تآزرت فيها علوم البلاغة فعرضت الفكرة في معرض لا تقوى عليه أقلام البشر.

وخلاصة ما سبق أن السياق القرآني في حديثة عن اللونين الأبيض والأسود قد تطرق إلى مسألة مهمة تتعلق بدلالة اللون الذي يكسو الوجوه في الدنيا والآخرة فقد جاء ابيضاض الوجه دالاً على النقاء والسرور للفوز بنعيم الله في الآخرة ، في حين أن اسوداد الوجه جاء دالاً على الحزن والغم والعذاب في الدنيا والآخرة.

ثانياً : اللون الأخضر ودلالته في الدنيا والآخرة

اللون الأخضر هو أحد الألوان بين البياض والسواد ، " وهو إلى السواد أقرب ؛ ولهذا سمى الأسود أخضر والأخضر أسود "[1] ؛ ولذا فقد يراد باللون الأخضر السواد أو الأدمة لقول الشاعر:

أنا الأخضر من يعرفني أخضر الجلدة في بيت العرب

واللون الأخضر يرتبط بالحقول والحدائق والأشجار التي تلعب دوراً مهماً في هدوء الأعصاب ؛ لذا فإنه يستعمل في طلاء حجرات

١- المفردات للراغب: مادة (خضر) ص ١٥٠

المستشفيات والمصحات ، كما أنه يرتبط بصور النعيم في الجنة ، ويرمز إلى الخصب والبركة والنماء في الدنيا ، ويبعث على البهجة والفرح ، ويخلو من كل الصفات السلبية ، ويريح البصر ويقوي حدته ؛ " لأن الساحة البصرية له أصغر من الساحات البصرية لباقي الألوان ، كما أن طول موجته وسطى فليست بالطويلة كاللون الأحمر ، وليست بالقصيرة كاللون الأزرق".[1] وهذا يفسر اختيار الحق – سبحانه – له كلون لثياب أهل الجنة وأرائكهم. كما "يُمثل اللون الأخضر في العقيدة الإخلاص والخلود والتأمل الروحي ، ولارتباطه بالحقول والحدائق والأشجار ارتبط بالنعيم والجنة في الآخرة ؛ ولهذا فهو لارتباطه بالحقول والحدائق والأشجار ارتبط بالنعيم والجنة في الآخرة ؛ ولهذا فإن اللون الأخضر يعد لون الألوان بالنسبة للمسلمين ".[2]

وقد تحدث السياق القرآني عن اللون الأخضر في الدنيا والآخرة بدلالتين:

الأولى: الخصب والبركة والنماء للنبات والأشجار في الدنيا.

الثانية: البهجة والسرور والنعمة والرضا لأهل الجنة في الآخرة.

وذلك في تسع آيات من القرآن الكريم ، خمس منها في الدنيا وأربع في الآخرة.

٢– مع الطب في القرآن الكريم: د/ عبد الحميد دياب والدكتور/ أحمد قرقوز – مؤسسة علوم القرآن – دمشق.

٣– اللغة واللون: د/ أحمد مختار عمر ، ص ١٦٤.

أولاً: اللون الأخضر ودلالة الخصب والبركة والنماء للنبات والأشجار في الدنيا

ورد اللون الأخضر في الدنيا في خمس آيات وهي:

١. ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ الأنعام: (٩٩)

٢. ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ يوسف: (٤٣)

٣. ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ يوسف: (٤٦)

٤. ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ الحج: (٦٣)

٥. ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ يس: (٨٠)

والمتأمل في الآيات السابقة يجد أن اللون الأخضر ورد فيها بدلالة الخصوبة والنماء والرطوبة والحياة ، متمثلاً في لون ثمار

الزروع وعلامة على خصوبة الأرض وحياة أشجارها وخصوبة السنين وازدهارها ، وذلك في سياق التدليل على عظمة قدرة الله – عز وجل – وتنبيه الناس للتدبر والاعتبار في آيات الله ، وبدائع صنعه في الحياة.

١ – في الآية الأولى ورد اللون الأخضر وصفاً للثمار ، حيث جاء قوله: (...فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا ...) تفصيل لمضمون قوله: (فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ) أي: " فأخرجنا من النبات (خضراً) شيئاً غضاً أخضر يقال: أخضر وخضِر، كأعور وعوِر ، وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة".[١]

وقد ذكر المفسرون أن المقصود بلفظ (خَضِرًا) الرطب من الزرع أو أنواع الثمار الخضراء الرطبة ، وقال ابن عباس: " يريد القمح والشعير والذرة والأرز وسائر الحبوب"[٢] والملاحظ أن النظم القرآني عبر عن اللون الأخضر بصيغة (خَضِرًا) وهو أرق ظلاً وأعمق ألفة من لفظ أخضر.

وهكذا يرسم السياق في الآية " مشهداً من مشاهد الحياة المتفتحة في جنبات الأرض تراها الأعين ، وتستجليها الحواس ، وتتدبرها القلوب ، وترى فيها بدائع صنع الله .. ودلالة على القدرة التي تبدع الحياة ، كما يوجه السياق القلب إلى استجلاء جمالها

---

١ – الكشاف للزمخشري: جـ/٢ ص ٤٩.

٢ – انظر: الطبري: جـ/٢ ص ٢٨٧ ، والقرطبي: جـ/٤ ص ٢٤٨٣ ، وصفوة التفاسير: جـ/٧ ص ٤٠٨ ، والتحرير والتنوير: جـ/٧ ص ٣٩٩.

والاستمتاع بهذا الجمال".[1] وعليه فقد جاء اللون الأخضر في الآية لوناً للثمار والزروع ، وعلامة مؤكدة للخصب والنماء.

٢ ، ٣- وفي آيتي يوسف (٤٣ ، ٤٦) ورد اللون الأخضر دالاً على الخصوبة حيث جاء في سياق تأويل الرؤيا التي رأها الملك فجعل السنبلات الخضر رمزاً للسنوات الخصبة" [2]

فقد فسر يوسف – عليه السلام – قوله: (وَسَبْعَ سُنْبُلَٰتٍ خُضْرٍ) بأنها من السنوات الخصب التي ينمو فيها المحصول ويعم الخير ، كما رمز بالسنابل اليابسة الجافة لسنوات الجدب الشديدة. وعلى ضوء هذا التأويل أمكنه رسم خطة اقتصادية مكنت مصر من اجتياز هذه الأزمة. وهذا ليس من باب التكهن أو الإخبار عن المستقبل".[3]

٤- وفى الآية الرابعة يتحدث السياق القرآني عن خصوبة الأرض واخضرارها ضمن حديثه عن قدرة الله – عز وجل – عندما ينزل المطر على الأرض فتتحول بقدرته إلى اللون الأخضر لون النبات. قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ) الحج: (٦٣) فقد جاء لون اخضرار الأرض في النظم الجليل للآية الكريمة في سياق التذكير بنعم الله – تعالى – على الناس وفي طيها دلائل قدرته الباهرة متمثلة في إظهار

١- في ظلال القرآن: جـ/٣ ص ١١٦١ – بتصرف.

٢- انظر: الطبري: جـ/٧ ص ٢٢٨ ، والقرطبي: جـ/٥ ص ٣٤٣١.

٣- انظر: الكشاف: جـ/٢ ص ٤٥٨ ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: جـ/٣ ص ١٠.

صورة الأرض المبهجة عندما تتحول عقب نزول المطر عليها – بإذن الله – إلى حال الإنبات والاخضرار رمزاً للنماء والخصوبة والحياة.

هذا وقد اتكأ النظم القرآني في نقل هذا المشهد على عدة دقائق أسلوبية تآزرت على رسم صورته المبهجة والتي تنطق بإظهار قدرة الله الباهرة ، ومنها:

إيثار النظم القرآني التعبير بمادة الإصباح (فتصبح) دون مادة الصيرورة وما في معناها: " لكون تلك المادة مؤذنة بحصول ضوء النهار لما في ذلك من ملاءمة لمعنى الرؤية وتمام التذكر والاعتبار ؛ ولأن رؤية الأشياء المحبوبة أول النهار أبهج وأسرّ للرائي" [1] فكان وراء هذه المادة مراعاة لجانب اللفظ والمعنى في هذا النظم الكريم. وفي العطف " بالفاء" التي للتعقيب في قوله (فتصبح) على قوله (أنزل) مناسبة للحال ومقاصد الكلام التي يوسوس بها السياق من كمال القدرة ، وتمام المنة على خلقه ، متمثلاً في سرعة اخضرار الأرض عقب نزول المطر عليها ، ومن ثمّ فإن العطف "بالفاء" يقتضي نصب الفعل المضارع (فتصبح) ولكن الفعل جاء مرفوعاً ، " لفساد المعنى المراد على النصب حيث يفيد نفي الإخضرار ولكن مع الرفع يثبت الإخضرار ، ويفيد بقاؤه في النبات زماناً ".[2]

والملاحظ أن الفعل (فتصبح) جاء على صيغة المضارع مع عطفه على الفعل (أنزل) الماضي ولك أن تسأل عما وراء العدول إلى المضارع مع أن ظاهر النسق للماضي على سنن (أنزل) قبله؟ وقد

٤- البحر المحيط لأبي حيان: جـ/٦ ص ٣٧٧.

١- انظر: الكشاف: جـ/٢٣ ص ١٦٤ ، والبحر المحيط: جـ/٦ ص ٣٧٦.

أجاب المفسرون عن ذلك بإجابات تبرز السر البلاغي من وراء العدول عن الماضي إلى المضارع في قوله (فتصبح) " فمنهم من قال: إن ذلك لإفادة بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان ، ونرى آخر يقول: لأن فيه تصويراً للهيئة التي عليها والحالة التي لابست الأرض ، وأما الماضي فمع إفادته معنى التحقق فإنه يفيد انقطاع الشيء ، ويقول آخر: للإشعار بتجدد أثر المطر واستمراره."[1]

ومهما يكن فإن الغرض من هذا العدول هو قصد المبالغة في إخضرار الأرض لأهميته، إذ هو المقصود بالإنزال ، ثم إن في التعبير بالمضارع (فتصبح) استحضاراً لتلك الصورة البديعة العجيبة الممتعة في ذهن المخاطب ، وهي صورة إخضرار الأرض عند نزول الماء عليها ، وما فيها من بهجة للناظرين وإمتاع لحصول الأمل بالرخاء والنماء ؛ " ولذا فقد اختير في التعبير – هنا – عن النبات الذي هو مقتضى الشكر لما فيه من إفاضة أقوات الناس والأنعام بذكر لونه الأخضر ؛ لأن ذلك اللون مبهج وممتع للأبصار ، فهو دليل على حياة النبات ونمائه ، فاجتمع به إلى جمال المنظر وبهجة النفس رمز رجاء النفع"[2] وهذا أوجب لشكره – تعالى – على ما خلق وأنعم به من بديع صنعه ؛ ولهذا كله سلك التعبير القرآني هذا الطريق في قوله: (فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً) دون فتنبت الأرض ، مع كون هذا التعبير أخضر: (فتنبت الأرض) إذ عليه يفوت أكثر ما لُحظ من دقائق

٢- انظر: الكشاف: جـ/٣ ص ١٦٤ ، والبحر المحيط: جـ/٦ ص ٣٧٦ ، وأبو السعود: جـ/٦ ص ١١٧ ، والتحرير والتنوير: جـ/١٧ ص ٣١٨.

٣- أسرار النظم في سورة الحج: د/ محمد على أبو زيد ، ص ١٧٤.

ولطائف ، ولما يفوت معه – أيضاً – مجيء لفظ (مخضرة) التى صار لونها الخضرة ، " فوزن تلك الصيغة "مُفْعَلَّة" مما يستعمل للاتصاف بالألوان"[1] ، وما توحي به من النماء والرخاء والأمل في زيادة الرزق وهي محل النعمة والقدرة.

ثم يختم النظم القرآني المشهد كله بالتعليل لإظهار هذه الصورة المبهجة لخلقه من إنزال المطر وإخضرار الأرض بقوله تعالى: (...إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ) أي: رفيق بمخلوقاته ، ولأنه عليم بترتيب المسببات على أسبابها. ومن هنا يدرك وجه المناسبة بين خصوص هذين الوصفين، وما سيق الكلام له. فقد أورد الفخر الرازي عن مقاتل " أنه – تعالى – لطيف باستخراج النبات خبير بكيفية خلقه"[2]

٥– ثم يأتي حديث القرآن عن اللون الأخضر وصفاً للشجر ودلالة على الرطوبة والخصوبة والحياة في الآية الخامسة، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ يس: (٨٠). وذلك ضمن سياق قرآني يتناول قضية البعث والنشور وبيان قدرة الله على إحياء الموتى، " فذكر من بدائع خلقه انقداح النار من الشجر الأخضر مع مضادة النار الماء ، وانطفائها به"[3]. وعليه فقد جاء اللون الأخضر الموصوف به الشجر في الآية الكريمة

٤– الكتاب لسيبوية: جـ/٤ ص ٢٥.

١– التفسير الكبير للفخر الرازي: جـ/٢١ ص ٦٣.

٢– الكشاف للزمخشري: جـ/٤ ص ٣٠.

وقوداً للنار ومصدراً لها مع ما فيه من الماء والرطوبة ، وهذه زيادة إيضاح لطبيعة القدرة الخالقة ، وللمفسرين في هذه الآية رأيان.

الرأى الأول: يذهب إلى أن الله خلق هذا الشجر من ماء حتى كان أخضراً نضراً ذا ثمر ينع ثم أعاده إلى أن صار حطباً يابساً توقد به النار.

وعليه يكون مناط العبرة هو الانتقال بالنبات من النضرة والخضرة – وهما قد يضادان قبول الإيقاد – إلى اليبس والحطبية ، وهما يقبلان الايقاد.

الرأى الثاني: يذهب إلى أن المراد بذلك شجر مخصوص وهو شجر " المَرْخ " و"العَفَار" وهو " شجر ينبت في أرض الحجاز فيأتي من أراد قدح نار وليس معه زناد فيأخذ منه عودين أخضرين ويقدح أحدهما بالآخر فيتولد النار بينهما كالزناد سواء "[1]

والذي أراه: أن الرأي الثاني أبلغ في الإعجاز ، حيث خلق الأضداء من بعضها ، فالشجر الأخضر الذي فيه الرطوبة والحياة يحمل فيه مادة الاشتعال.

ومن ثم فقد جاء وصف الشجر باللون الأخضر في الآية كناية عن الرطوبة والخصوبة والحياة فيه ، وهذا هو موطن الإعجاز في الخلق ، والقدرة على إيجاد الضد – وهو نهاية الحرارة – من ضده وهو الرطوبة. يقول ابن عاشور:" ... وهذا هو وجه وصف الشجر بالأخضر إذ ليس المراد من الأخضر اللون ، وإنما المراد لازمه وهو الرطوبة ؛ لأن الشجر أخضر اللون ما دام حياً ، فإذا جف وزالت منه

٣- انظر: الكشاف: جـ/٣ ص ٢٩٤ ، وروح المعاني: جـ/٢٣ ، ص ٥٦.

الحياة استحال لونه إلى الغبرة ، فصارت الخضرة كناية عن رطوبة النبت وحياته".[1]

وهكذا فقد امتن الله على عباده بنعمة النار التي يقضون عليها حوائجهم. ومن تمام الإعجاز في هذه النعمة أن هذا العنصر الناري يخرج من عودين خضراوين يقدح أحدهما بالآخر وهما من شجر المرخ والقُفار. فالشجر الأخضر فيه ليونة ورطوبة ، والنار عنصر فيه إحراق فبينهما تضاد من هذه الناحية. ثم إن ابتناء هذا التضاد على عنصر اللون جعله من باب التدبيج الحسن.

وخلاصة ما سبق أن اللون الأخضر في الآيات السابقة قد جاء بمعنى النماء والخصوبة والرطوبة والحياة للأرض والنبات والأشجار في الدنيا.

ثانياً: اللون الأخضر ودلالة البهجة والسرور والنعمة والرضا لأهل الجنة

وهنا ينتقل السياق القرآني في حديثه عن اللون الأخضر من عالم الشهادة في الدنيا ، حيث ألوان الزروع والثمار والأرض والأشجار ، إلى عالم الغيب في الآخرة وخاصة بما يتصل بأحوال الجنة ، وما ينتظر أهلها من نعيم مقيم. فتارة نجد الخضرة لوناً لثياب أهل الجنة ، وتارة لوناً لوسائدهم وفرشهم ، وتارة أخرى نجد الخضرة المشوبة بالسمرة لوناً للجنة.

١- التحرير والتنوير ، لابن عاشور: جـ/٢٣ ص ٧٧.

١. اللون الأخضر وثياب أهل الجنة

ورد اللون الأخضر واصفاً ثياب أهل الجنة في آيتين كريمتين وهما:

١. ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾ الكهف: (٣١)

٢. ﴿ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ الإنسان:(٢١) وذلك ضمن حديث القرآن عن جزاء المؤمنين في الآية الأولى ، وسياق تعداد نعيم الأبرار وكرامتهم في الثانية فقد بين الله – عز وجل – أنهم يلبسون الثياب الفاخرة الخضراء ، داخلون في ألوان من الحرير الرقيق الناعم وهو السندس ، والحرير السميك المبطن وهو الاستبرق ، محلون بأنواع من الزينة ..

والملاحظ أن النظم القرآني لم يكتف ببيان ما يستر أبدانهم من أنواع الثياب الفاخرة ، بل زاد على ذلك بما يبعث على البهجة للنفس والامتاع للعين ، وهو اللون الأخضر. ولكن لماذا خص اللون الأخضر دون غيره من الألوان؟ يقول القرطبي: " خُص اللون الأخضر بالذكر ؛ لأنه الموافق للبصر ، لأن البياض يبدد النظر ويؤلم ، والسواد يُذم ، والخضرة بين البياض والسواد ، وذلك يجمع الشعاع".[١]

١– تفسير القرطبي: جـ/٦ ص ٤٠١٤.

والجدير بالذكر أن العلم الحديث قد أثبت " بأن اللون الأخضر يريح البصر ؛ لأن الساحة البصرية له أصغر من الساحات البصرية لباقي الألوان ، كما أن طول موجته وسطى فليست بالطويلة كاللون الأحمر ، وليست بالقصيرة كاللون الأزرق".[١]

ومن ثم فإن اللون الأخضر هو أعدل الألوان ، وأمتعتها للعين وأنفعها للبصر ، كما " أنه من شعار الملوك ، قال النابغة يمدح ملوك غسان:

يصونون أجساداً قديماً نعيمها بخالصة الأَرَدْان خُضْر المناكب"[٢]

واللافت للنظر في الآية الثانية أنها أُفتتحت ببيان النعيم المصاحب لأهل الجنة من الثياب الخضراء التي تعلوهم ، والمزينة بأنواع الزينة من الحرير والسندس: (عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ) وإنما قال: (عاليهم) " لينبه على أن لهم عدة من الثياب ، ولكن الذي يعلوها هي هذه ، فتكون أفضلها".[٣] في حين ذكرت الآية الأولى أنهم: (وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا ...) ربما يكون هذا إشارة إلى أن لهم ثياباً واحداً هو الأخضر ، وهذا يوحي بعلو مرتبة الأبرار على المؤمنين. وربما يسأل سائل ولماذا ساوى بينهم في لون الثياب؟! ؛ لأن في لون الثياب إمتاع للفريقين ، فكل فريق ينظر إلى الآخر فيتحقق الإمتاع والنفع للاثنين معاً. والله أعلم بأسرار كتابه.

٢- مع الطب في القرآن الكريم: د/ عبد الحميد دياب و د/ أحمد قرقوز، مؤسسة علوم القرآن- دمشق: ص٤٨.

٣- انظر: التحرير والتنوير: جـ/١٥ ص ٣١٢.

٤- حاشية الصاوي على الجلالين: جـ/٤ ص ٢٧٨.

كما يلحظ – أيضاً – في الآية الثانية أن النظم القرآني آثر تقديم ذكر الثياب الخضر التي تعلو أصحاب الجنة (عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ...) ؛ وذلك لأن الكلام فيها جرى على صفات أصحاب الجنة اهتماماً بهم ، ولما كان اللباس أشد اتصالاً بهم لا بمظاهر الجنة قدمه في الذكر على الحُلي ، على حين قدم ذكر الحلي على اللباس في الآية الأولى (الكهف) (... يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا ...) ؛ وذلك لأن الكلام فيها وقع صفة للجنات ابتداءً ، ولما كانت مظاهر الحلي أبهج للجنات قدم ذكر الحلي وأخرّ اللباس"[1]

ومن ثم فإنه يوحي بأهمية الثياب الخضراء لأصحاب الجنة ، وأنها أفضل عندهم من التحلي بالذهب والفضة ؛ ولذلك قدمه في حق الأبرار وهم أعلى منزلة من المؤمنين .. عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: " بينما نحن عند رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إذ جاءه رجل فقال: يا رسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة أخلقاً تخلق أو نسجاً تنسج؟ فضحك بعض القوم ، فقال: مم تضحكون؟ إن جاهلاً يسأل عالماً ، فجلس يسيراً أو قليلاً ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم: أين السائل عن ثياب الجنة؟ فقالوا: ها هو ذا يا رسول الله قال: لا بل تنفتق عنها ثمر الجنة ، قالها ثلاثاً ".[2]

١– انظر: التحرير والتنوير: جـ/٥ ص ٣١٤.

٢– انظر: تفسير القرطبي: جـ/١٠ ص ٣٥٥ ، والحديث أخرجه أحمد في مسنده ، جـ/٢ ، ص٢٢٤ ، ٢٢٥.

٢. اللون الأخضر وفرش أهل الجنة

ورد اللون الأخضر وصفاً لفرش أهل الجنة وذلك في آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ ﴿٧٦﴾ ﴾ الرحمن: (٧٦). وذلك في مقام تعداد النعيم الذي أعد لمن خاف مقام ربه: ﴿ وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ هذا وقد تعددت آراء المفسرين في معنى (الرفرف) وهو الموصوف في الآية باللون الأخضر ، فمنهم من قال: " بأن "الرفرف" هو وسائد الجنة التي يتكئون عليها ، وقيل: هو فضول المجالس وهي ما يطرح على ظهر الفراش للنوم عليه. وقيل: هو رياض الجنة ، ويغلب عليها اللون الأخضر ، وقيل: هو فضول الثياب التي تتخذ الملوك في الفرش وغيره. قال ابن القيم " والرفرف: ثياب خضر يتخذ منها المحابس. الواحدة رفرفة وكل ما فضل من شيء فثُني وعُطف: فهو رفرف ، وفي حديث ابن مسعود في قول الله – عز وجل – (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) قال: رأى رفرفاً أخضر سَدَّ الأفق"[١]

ويفهم من آراء العلماء أن المقصود " بالرفرف" هو الفرش سواء أكانت وسائد يتكئون عليها أم بساط ينامون عليه ، أم كانت المحابس المتدلية على أسرَّتهم. وقد وصفها النظم القرآني بأنها (خضر) وهو وصف كاشف لاستحضار اللون الأخضر ، لأنه يسر الناظرين وهي لباس الملوك والكبراء. ومن المؤكد أن اللون الأخضر

٣– الحديث في الصحيحين ، يراجع التفسير القيم لابن القيم: ص ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ويراجع تفسير القرآن العظيم: جـ/٢ ص ٢٢٨ ، والتحرير والتنوير: جـ٢٧ ص٢٧٥ ، والقرطبي: جـ/٩ ص ٦٣٦٠.

يزيد البهجة والسعادة لأهل الجنة ؛ لأنه يحمل هذه الظلال النفسية ، حيث يرتبط بالحقول والأشجار ويلعب دوراً مهماً في هدوء الأعصاب.

كما وصفت هذه الفرش بقوله: (وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ) وهو وصف لما كان فائقاً في صنعه عزيز الوجود ، وهي نسبة إلى "عبقر" قرية بناحية اليمن ، ينسج فيها بُسط منقوشة بلغت النهاية في الحسن ، فقرب الله لنا فرش الجنتين بتلك البسط المنقوشة ، " وقد كان العرب ينسبون كل عجيب إلى وادي الجن بـ"عبقر" ، فضربه القرآن مثلاً لما هو مألوف عند العرب في إطلاقه"[1]

٣. اللون الأخضر ووصف الجنة

وفي سياق حديث القرآن عن اللون الأخضر يستخدم القرآن الكريم درجة أعلى من درجات هذا اللون وهي الخضرة المائلة إلى السمرة أو الأخضر الغامق وصفاً لجنتي أصحاب اليمين ، وذلك في آية واحدة وهي:

١. ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَامَّتَانِ ﴾ الرحمن: (٦٢-٦٤)

فقد جاء الوصف للجنتين هنا بقوله: (مُدْهَامَّتَانِ) أي: " خضراوان تضربان إلى السواد من شدة الخضرة "[2] ، و(مُدْهَامَّتَانِ) وصف مشتق من الدُّهمة بضم الدال وهي لون السواد.

١- انظر: حاشية الصاوي: جـ/٤٢ ص ١٦٠ ، والتحرير والتنوير: جـ٢٧ ص٢٧٥.

٢- البيضاوي بهامش الشهاب: جـ/٨ ص١٣٨.

قال الراغب: " دهم: الدُّهمة سواد الليل ، ويُعَّبر بها عن سواد الفرس ، وقد يعبر بها عن الخضرة الكاملة اللون ، كما يعبّر عن الدُّهمة بالخضرة إذا لم تكن كاملة اللون ، وذلك لتقاربهما باللون. وسميت الخضرة بالدّهمة في قوله – سبحانه – (مُدْهَآمَّتَانِ) أي: خضراوان".[1]

وقد تعددت آراء المفسرين في ذكر دلالة هذا اللفظ (مُدْهَآمَّتَانِ) قال الطبري: " مسودتان من شدة خضرتهما ، وقال القرطبي: خضراوان من الرّي ، وقال الزمخشري: قد ادهمتا من شدة الخضرة ، وقال الشيخ زاده: مائلتان إلى السواد من الدُّهمة وهي السواد. يقال: ادَّهام الزرع ادهيماماً فهو مُدّهام إذا علاه السواد ريّاً "[2]

ويفهم من كلام المفسرين السابق تحول اللون الأخضر إلى لون آخر هو اللون الأسود نتيجة شدة درجة اللون الأخضر ، " ووصف الجنتين بالسواد مبالغة في شدة خضرة أشجارهما حتى تكونا بالتفاف أشجارها وقوة خضرتها كالسوداوين ؛ لأن الشجر إذا كان ريَّان اشتدت خضرة أوراقه حتى تقرب من السواد ".[3] وهذا يدل على استواء اللون ونضجه بالوصول إلى درجة عالية فيه ، وهو الأخضر الغامق ، حيث الدرجة اللافتة للنظر من هذا اللون المبهج.

٣- المفردات للراغب: مادة (دهم) ص١٧٣ ، مادة خضر ص١٥٠.

٤- انظر: الطبري: جـ/١١ ص٦١٠ ، والقرطبي: جـ/٩ ص ٦٣٥٥ ، الكشاف: جـ/٤ ص ٥٤ ، حاشية الشيخ زاده علي البيضاوي: جـ/٤ ص ٤٣٦.

١- التحرير والتنوير: جـ/٢٧ ص ٢٧٢.

وعليه فإن في وصف جنتي أصحاب اليمين بهذا اللفظ (مُدْهَامَّتَانِ) بمعانيه المتعددة ، والدالة على المبالغة في شدة الخضرة إشارة إلى إدخال البهجة والسرور على أصحاب اليمين ، وذلك بعد وصفه لجنتيهم بأنهما دون جنتي السابقين: (وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ) الرحمن:(٦٢).

وهكذا فإذا كان اللون الأخضر يبعث على البهجة والسعادة ، فما بالك إذا اشتد في الاخضرار! ألا يدل ذلك على المبالغة في خلق جو مفعم بالبهجة والسعادة والسرور لأصحاب اليمين ، إكراماً لهم من رب العالمين ؟!

وخلاصة ما سبق أن اللون الأخضر يرمز إلى الخصوبة والنماء والرطوبة والحياة والبهجة والسعادة وهذه المعاني نراها في الدنيا متمثلة في الزروع والثمار والأشجار ، ثم تأتي هذه المعاني على أعلى درجة في الآخرة سواء كان منظراً عاماً للجنة كما في قوله: (مُدْهَامَّتَانِ) أو خاصاً في لباس أهل الجنة وفرشهم ، كما في قوله سبحانه: (عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ...) وقوله: (مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ ...)

ومن ثمّ فقد لعب اللون الأخضر دوراً مهماً في إبهاج النفوس وإمتاع العيون ، وإدخال السعادة في الدنيا والآخرة ؛ ولذا قيل عن هذا اللون: " إنه لون الألوان وأفضلها عند المسلمين"[١]

ثالثاً: اللون الأصفر ودلالته في الدنيا والآخرة:

٢- اللغة واللون: د/ أحمد مختار عمر: ص ١٦٤.

الصفرة لون من الألوان التي بين السواد والبياض ، وهي إلى السواد أقرب ؛ ولذلك قد يعبر بها عن السواد"[1] ويوحي اللون الأصفر بالمرض والشيخوخة ، والاستتراف والضنى ، وصفرة الوجه يولدها الفزع والبؤس والسقم ، كما يعبر الأصفر عن إرهاصات الموت والفناء ، ويرتبط بالاضمحلال والتساقط ، وذلك كثير في الشعر العربي ، ومنه قول الشاعر:

تبكي على الأعشاب هجر غصونها بمدامع نضبت ووجه أصفر

هذا وبالتأمل في الآيات التي تحدثت عن الألوان وجدت أنها قد تحدثت عن اللون الأصفر بدلالات مختلفة من خلال سياقات وصيغ متعددة ، سواء أكان ذلك في الدنيا أم في الآخرة ، وذلك في خمس آيات من القرآن الكريم ، أربع منها في الحياة الدنيا ، وواحدة في اليوم الآخر.

١- اللون الأصفر ودلالته في الدنيا:

١. قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ البقرة: (٦٩)

٢. قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ الروم: (٥١)

٣. قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ ﴾ الزمر: (٢١)

٣- المفردات للراغب: مادة (صفر) ص ٢٨٣.

٤. قوله تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ ... ﴾ الحديد: (٢٠)

وبعد قراءة هذه الآيات وتدبر معانيها ومتابعة سياقاتها نجد أنها تكشف عن دلالتين للون الأصفر في عالم الشهادة ، نمَّ عنهما السياق ودل عليهما المقام وهما:

الدلالة الأولى: الصحة والنضارة والحيوية

وقد ورد اللون الأصفر بهذه الدلالة في الآية الأولى والتي تصف بقرة بني إسرائيل التي أمر بذبحها: (...إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ) البقرة: (٦٩).

وقد تباينت آراء المفسرين حول تحديد المقصود من قوله: "صفراء" فمنهم من قال: سوداء شديد السواد .. وقال آخرون: صفراء القرن والظلف"[1] والجمهور من المفسرين على ترجيح المعنى الثاني ، وهذا ما أميل إليه ؛ وذلك لأنه لو كان المقصود بالصفرة – هنا – السواد لتم التعبير عنه بلفظ من الألفاظ الدالة عليه صراحة ، كالألفاظ (سود – مسود – مسودة) كما أن التأكيد بقوله: (فاقع) ينافيه ؛ لأنه من وصف الصفرة في المشهور ، حيث يقال: أصفر فاقع ، ولا يقال: أسود فاقع ، كما أن في الوصف للبقرة بقوله: (تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ) وقوله: (مسلَّمة) أي خلص لونها تأييدًا لما عليه الجمهور من صفرة لونها ، ولما أن الصفرة من الألوان السارة ؛

١- تفسير الطبري: جـ/١ ص ٣٨٧.

ولذا كان علي – كرم الله وجهه – يرغب في النعال الصُّفر. ويقال: " إن من لبس نعلاً أصفر: قلّ همه"[1] ويقول الإمام الألوسي: " ووصف من ذهب إلى المعنى الأول بأنه خلاف الظاهر ؛ وذلك لأن الصفرة وإن استعملها العرب بهذا المعنى – نادراً – كما أطلقوا الأسود على الأخضر ، لكنه في الإبل خاصة ، على ما قيل في قوله – تعالى – (جِمَٰلَتٌ صُفۡرٌ) ؛ لأن سواد الإبل تشوبه صفرة "[2]. وقد تبين مما سبق أن بقوله: (صفراء) درجة عالية من اللون الأصفر ، وذلك بدلالة قوله: (فاقع) وقوله: (مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ) وقوله: (تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ).

وفي الوصف بقوله: (تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ) – زيادة على ما ذكر – إيحاء بالدلالة المقصودة من اللون الأصفر في عالم الشهادة ألا وهي: الصحة والنضارة والحيوية ؛ وذلك لأن المراد من هذا الوصف إدخال السرور في نفوسهم عند رؤيتها بهذا اللون الأصفر الفاقع شديد الصفرة ، ولا يحصل السرور للناظر إليها إلا بما يظهر عليها من الحيوية والنضارة والصحة. وثمة دليل آخر على ذلك من النظم القرآني في هذه الجملة ، (تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ) حيث آثر النظم إسناد الفعل (تسر) إلى ضمير البقرة ، لا إلى ضمير اللون. لأن اللون الأصفر ليس مما يسر الناظرين مطلقاً. ولكنه ربما يوحي بالضعف والشحوب والهزال والجدب والهلاك ؛ وذلك حسب درجة اللون ، والموصوف به ، ودلالة السياق عليه. ولكن الأمر – هنا – مختلف

١– انظر: الكشاف: جـ/١ ص ١٥٢ ، وأبو السعود: جـ/١ ص ١١٢ ، والتحرير والتنوير: جـ/١ ص٥٥٣.

٢– روح المعاني للألوسي: جـ/١ ص ٢٨٩.

حيث إن الموصوف بالصفرة هي بقرة بني إسرائيل ، وقد بلغ اللون أعلى درجات الصفرة. يقول الفخر: " وقد يظن البعض أن اللون الأصفر يرتبط عموماً بالضعف والشحوب والهزال ويبدو ذلك عند عدم اكتمال اللون ، لكن القرآن الكريم – هنا – نفى هذا الظن بقوله: (تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ) ومن المعلوم أن الناظر إليها يسر بما يظهر عليها من الحيوية والنضارة والصحة والنعمة. والسرور حالة نفسانية تعرض عند حصول اعتقاد أو علم أو ظن بحصول شيء لذيذ أو نافع".[١]

ومن كلام الفخر الرازي يتبين لنا الأثر النفسي للون الأصفر ، ودلالته على الصحة والنضارة والحيوية لمن اتصف بهذه الدرجة من الصفرة ؛ ولذا فقد قيل: إن هذا اللون من أحسن ألوان البقر ، وهذا ما أثبته العلم الحديث ، حيث قرر علم الطب البيطري " أن خير الأبقار وأفضلها ما كان لونها شديد الصفرة في صفاء .. وأنه على قدر صفاء اللون وسلامة الأسنان تكون صحة البقرة .. وقد اكتشف العلماء حديثاً أن اللون الأصفر له دلالته في الآية الكريمة ، فقد تبين أنه لا يحتاج إلى قوة من عدسة العين لكي تراه أي: أنه يتجمع مباشرة على الشبكية دون مجهود من العين في حين أن الأمر مختلف بالنسبة إلى غيره من الألوان ".[٢] وبهذا ندرك مغزى إشارة

٣- مفاتيح الغيب للفخر الرازي: المجلد الأول: الجزء الثاني: ص ٥٤٤ ، ٥٤٥.

١- الإعجاز العلمي في القرآن الكريم: د/ محمد كامل عبد الصمد: ص ١٦١ – بتصرف.

القرآن الكريم إلى اللون الأصفر بالذات في قوله: (...صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ) البقرة: (٦٩).

والملاحظ في الآية الكريمة أن اللون الأصفر جاء على وزن " أفعل " الذي مؤنثه فعلاء، وهو وصف من أوزان الصفة المشبهة ، وهي " اسم مصوغ للدلالة على الحدث والذات على وجه الثبوت والاستمرار ، كما أنه يكون منه الألوان والخِلَق مثل أحمر حمراء وأصفر صفراء وأعور عوراء ".[١]

وفي وصف اللون الأصفر بقوله: (فاقع) دلالة على أنه قد بلغ أعلى درجة من الصفرة ، وهنا تبدو الدقة القرآنية في استقصاء حقيقة اللون ، وإظهار أعلى درجاته.

ويلحظ أن قوله (لونها) مضاف إلى ضمير البقرة ، وفي ذلك دلالة على أنه اللون الأصفر فكان وصفه (فاقع) وصفاً حقيقياً ، ولكن النظم القرآني عدل عن أن يقال: صفراء فاقعة إلى قوله: (صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا) ؛ " ليحصل وصفها بالفقوع مرتين ففيه إذن فضل تأكيد ، ولم يكتف بقوله: (صَفْرَآءُ فَاقِعٌ) ، لأنه أراد تأكيد نسبة الصفرة فحكم عليها أنها صفراء ثم حكم على اللون أنه شديد الصفرة فابتدأ أولاً بوصف البقرة بالصفرة ، ثم أكد ذلك بوصف اللون بها فكأنه قال: هي صفراء ولونها شديد الصفرة ".[٢]

٢- انظر: الكتاب لسيبوية: جـ/ ٢ ص ٥٢ ، والتصريح: جـ/ ٢ ص ٧٨.

٣- انظر: الكشاف: جـ/١ ص ١٥٢ ، روح المعاني: جـ/١ ص ٢٨٩ ، وأبو السعود: جـ/١ ص ١١١.

ومن ثم فإن في ذكر القرآن للون الأصفر الفاقع ، وتحديد هذه الدرجة دلالة قاطعة على أن الألوان بدرجاتها كانت معروفة في العصر الفرعوني ، بل يدل على عظمة وعمق هذه المعرفة ، مما كان له الأثر الواضح على حياتهم ومعاملاتهم " وقد أثبت هذا علماء الآثار بعد الحفريات التي قاموا بها ، والاكتشافات الأثرية التي أزاحوا النقاب عنها .. في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. أي بعد نزول هذه الآية بمئات السنين ".[1]

ألا يمكن أن نعد هذا إعجازاً يضاف إلى الإعجاز القرآني – في المجالات الأخرى – وأن نثبت بهذه الآية أنه كتاب يحوي علم ما سبق ، وعلم ما سيأتي.

٢. الدلالة الثانية: النضج الذي يعقبه الجفاف والهلاك

ورد اللون الأصفر بمعنى النضج الذي يعقبه الجفاف وموحياً بالجدب والهلاك للنبات ، وذلك في ثلاث آيات بينات وهي:

١. قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾ الروم: (٥١)

٢. قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ الزمر:(٢١)

٤– الألوان في القرآن: أحمد رأفت: ص ١٧.

٣. قوله تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ الحديد: (٢٠)

واللافت للنظر في الآيات أن اللون الأصفر ورد فيها على صيغة الحال " مُصفَراً " وهو " اسم مفعول يقتضي الوصف بمعناه في الحال ، أي: فرأوه يصير أصفر ، فالتعبير بـ" مصفراً" لتصوير حدثان الاصفرار عليه "[1] ، وذلك في مقام بيان قدرة الله – عز وجل – وتفرده بالألوهية بدليل من مخلوقاته متمثلاً في ألوان النبات ، وهو بذلك ينبه على حالة من أحوال الزرع، وطورٍ من أطوار تمام نضجه الذي يعقبه الجفاف والهلاك ، مبرهناً على كمال قدرته.

ومن ثمّ فإن في مجيء اللون بهذه الصيغة (مصفراً) تواؤماً وتناغماً مع مقام الآيات وسياقها الذي وردت فيه ، فالآية الأولى وردت في سياق بيان حال أهل الكفر إذا أصابهم العذاب ممثلاً في اصفرار الزرع الذي يعقبه الجفاف والهلاك ، وذلك بإرسال الريح التي رأوها مصفرة بما تحمل من رمل وتراب ، حيث تصورهم الآية أعجب تصوير من حيث إظهارهم الكفر عندما يكون الزرع أخضر ، فإذا أصابته الريح المهلكة للزرع والضرع أو التي يصفر منها الزرع فيصير حطاماً ، يكفرون سخطاً ويأساً بدلاً من أن يستسلموا لقضاء الله ويتوجهوا إليه بالضراعة ليرفع عنهم البلاء.

١– التحرير والتنوير: جـ/٢١ ص ١٢٥.

هذا وقد تباينت آراء المفسرين حول الموصوف بالاصفرار فمنهم من رأى أن الموصوف به هو السحاب قال الزمخشري: "... فرأو السحاب مصفراً ؛ لأنه إذا كان كذلك لا يمطر"[1] ، ومنهم من جعله وصفاً للزرع والكلأ ؛ لأن الضمير يعود على أثر رحمة الله وهي الغيث ، وأثرها النبات ، قال الزجاج: " فرأوا النبت قد اصفرّ وجف"[2] ، ومنهم من جعل (مصفراً) وصفاً للريح أي: " الريح التي رأوها مصفرة بما تحمل من رمل وتراب لا من ماء وسحاب وهي الريح المهلكة للزرع والضرع "[3] وكون (مصفراً) وصفاً للريح ؛ هو الأليق بالآية ؛ حيث يعود الضمير على أقرب مذكور ، وعليه فإن التعبير بقوله (...فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا) مجاز مرسل علاقته السببية ؛ لأن الريح سبب في اصفرار الزرع ، حيث وصف بالاصفرار نيابة عن الزرع وكون " مصفراً " وصفاً للزرع غير بعيد – أيضاً – ؛ لأن الآيات تتحدث عن آثار رحمة الله وهو النبات ، وكيف يحي الأرض بعد موتها ، والريح لا شك تؤثر في النبات ، قال صاحب المنتخب في تفسير القرآن: " أقسم لئن أرسلنا ريحاً مضرة بالنبات فرأوه مصفراً بسببها لصاروا من بعد اصفراره يجحدون النعمة ويكفرون بالله ".[4]

والذي أراه: أنه لا مانع من كون الاصفرار وصفاً للسحاب ، والريح ، والنبات ؛ لأن الريح المصفرة المحملة بالرمال والتراب

٢- الكشاف للزمخشري: جـ/٢ ص ١٧٧ .

١- معاني القرآن وإعرابه للزجاج: جـ/٤ ص ٨٨٩.

٢- انظر: في ظلال القرآن: جـ/٥ ص ٢٧٧٥.

٣- المنتخب في تفسير القرآن: ص ٦٠٩.

والسحاب المصفرة لا شك أنها تؤثر في النبات ، وتكون سبباً في اصفراره ؛ ولمناسبة حالة القوم الملازمة للكفر ، ولما فيه – أيضاً – من المبالغة في العذاب والتنكيل بهم ، فمقام العذاب يوافقه التعدد والتنوع ؛ لذلك أتى بلفظ (الريح) مفردة ، حيث تكون للضرر والعذاب والهلاك.

ومهما يكن فإن الملاحظ في هذه الآية أن " الاصفرار " حالة تعتري النبات قبل جفافه ، وبها يستبشر أهل الإيمان ، ويبقى أهل الكفر على كفرهم ، حيث قال الحق: (...لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ يَكۡفُرُونَ) ، فقد قيل: إن المراد بالاصفرار – هنا – الآفة التي تضرب زروعهم. قال الفراء: (فَرَأَوۡهُ مُصۡفَرّٗا) : " يخافون هلاكه بعد اخضراره ".[1]

ومن ثمّ فقد جاء اللون الأصفر – هنا – مرتبطاً بالجفاف والهلاك ، وهو ملازم لمقام العذاب ، والموافق لحالهم ، فهم كافرون لا يؤثر فيهم الابتلاء ولا النعمة.

٢– وفي سياق لفت الانتباه إلى حياة النبات في الأرض عقب إنزال الماء من السماء ، يأتي اللون الأصفر بدلالة النضج الذي يعقب الجدب والهلاك ، وذلك في الآية الثانية [الزمر: (٢١)] فهي ترسم لوحة فنية لتلك الجنات اليانعة التي تجري فيها الأنهار، وتكثر فيها الأشجار وتتنوع فيها الثمار مختلفة الألوان والأشكال تدليلاً على قدرة الواحد القهار ، والتي يشاهدها الناس بالليل والنهار. والآية فيها تمثيل لحياة الإنسان والنبات بالحياة الدنيا ، فمهما طال عمر الإنسان فلا بد من الانتهاء ، إلى أن يصير مصفر اللون متحطم الأعضاء

٤– معاني القرآن – للفراء: جـ/٢ ص ٣٢٦.

متكسراً كالزرع بعد نضرته ، ثم يكون عاقبته الموت. قال ابن كثير: " هكذا الدنيا تكون خضرة ناضرة حسناء ، ثم تعود عجوزاً شوهاء ، وكذلك الشاب يعود شيخاً هرماً كبيراً ضعيفاً ، وبعد ذلك كله الموت ، فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير ".[1]

وقد جاءت الآية بهذه الصورة التي ترصد اصفرار الزرع وجفافه تذكيراً وتنبيهاً على أنه لا بد من صانع حكيم وأن ذلك كائن عن تقدير وتدبير (...إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ).

ومثل هذا التصوير الرائع لرصد إصفرار الزرع وجفافه ، وكونه تذكرة لأولي الألباب ، الصورة التي ذكرها الحق – سبحانه – في سورة الحديد قال تعالى: (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ...) الحديد: (٢٠). فقد جاء الإصفرار في الآية وصفاً للنبات في سياق التزهيد في الدنيا ، والحث على الإنفاق ودحض أسباب الشح. وورد التمثيل فيها لحال الدنيا في إقبالها وسرعة انتهائها بحال النبات يستوي على سوقه، ويخضر ويعجب به الزراع ثم يجف ويصفر ويكون هشيماً متكسراً.

وقد جاء اللون الأصفر ضمن هيئة المشبة به وهو قوله: (... كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ...).

والملاحظ في الآية أن النظم القرآني قد آثر لفظ " الغيث " على " المطر " وذلك للدلالة على شدة تعلق النفوس به وتطلعها إليه

١- مختصر ابن كثير: جـ/٣ ص ٢١٧.

، لما فيه من معنى الإغاثة كما ورد منكراً " غيث " وذلك للدلالة على كثرته وعظمته ، ومن ثم فقد كان سبباً في هذا النبات المبهج الـذي أعجب الزراع ، فإذا كان أهل الصنعة والخبرة قد أعجبوا به فهو لا شك قد وصل غاية الحسن والنضرة.

وقد ترقى حسن النبات في الخضرة والنضرة حتى بلغ الغايـة التى دل عليها هذا التراخي الرتبي في " ثم " ، " حيث عطفت جملـة "يهيج" بـ" ثم " لإفادة التراخي الرتبي ؛ لأن إصفرار النبـات أعظـم دلالة على التهيؤ للزوال ، وهذا هو الأهم في مقام التزهيد في متـاع الدنيا. على حين عطفت جملة " تراه مصفراً " بالفاء ؛ لأن إصـفرار النبت مقارب ليبسه ".[1]

ويلحظ أن هذا الترقي للنبات قد جاء فـي الآيتـين [الزمـر: (٢١) والحديد: (٢٠)] مبدوءاً بقوله: (يهيج) ، وتدور مادة " يهيج " حول الاضطراب والدوران والتواثب والشدة والحركة "[2] وفي ذلـك إشارة إلى أن النبات قد بلغ مداه في القوة والحركة والغلظ ، وكان له في تحركه صوت يشبه صوت الحيوان الهائج أو الحرب وما يحـدث فيها من صياح وجلبة ، ولذلك سميت الحرب بالهيجاء ، قال الشاعر:

إذا كانت الهيجاء وانشقت العصا فحسبك والضحاك سيف مهند

١- التحرير والتنوير: جـ/٢٧ ص ٤٠٥ – بتصرف.

٢- انظر لسان العرب مادة (هيج).

وليس من معانيها اليبس أو الجفاف كما ذهب بعض المفسرين. [1]

ومن ثم فإن في اختيار لفظ (يهيج) في آية الحديد " للتعبير عن حال النمو والنضارة ملاءمة دقيقة لحال المشبة وهو اللعب والتفاخر والتكاثر ، وما في ذلك من الهيجان والجلبة ".[2]

ثم إن التعبير في الآيتين بقوله (...ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ - يَجْعَلُهُ حُطَامًا...) يصور حركة نشيطة للفناء العاجل ، فالنبات الذي أعجب به الزارعون أمس قد أصبح الآن على غير ما يعجب ويروق ، فقد اصفرّ لونه بعد خضرة مما يؤذن بالنهاية.

وعليه فإن اصفرار النبات في الآيتين دلالة على أنه بلغ كمال النضج الذي يعقبه الجفاف واليبس والهلاك ، وهو ما أكده قوله: (ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا) (ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا).

والملاحظ في الآيتين أن اللون الأصفر ورد في الآيتين بلفظ " مصفراً " دون فيصفر ، وذلك للإيذان بأن إصفراره مقارن لجفافه ، وإنما المترتب عليه رؤيته كذلك ، ومعلوم أن إصفرار الأوراق وذبولها لا بد وأن يؤدي إلى جفافها وسقوطها فتتعرى السيقان عما كان يغطيها من أوراق وأزهار فتبدوا حطباً جافاً قد نضبت فيه ماء

٣- ومنهم الإمام القرطبي، والإمام البيضاوي: يراجع القرطبي:جـ/د١ ص٢٢٦، والبيضاوي:جـ/٢ ص١٥٤.

٤- الإعجاز البلاغي دراسة تحليلية لتراث أهل العلم ، أ. د/ محمد أبو موسى ، ط/ سنة ١٩٨٤ – مطبعة المختار الإسلامي ، الناشر مكتبة وهبة بالقاهرة ، ص ١٠٨.

الحياة ، وقد خلع ما عليه من الزينة والزخرفة ، وهذا هو معنى قوله: (...ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ).

وهكذا لم يكن للنبات الذي بلغ الكمال إلا أن تسرع إليه عوامل الزوال. وتأتيه الصفرة المنذرة بالهلاك (فتراه مصفراً) وبهذا الاسم الدال على الثبوت ؛ لأنه المقصد الأصيل من التمثيل. ومن ثمّ فإن في الآيتين تلميحًا إلى تبدل حالة الحياة من حال إلى أخرى ، وكلها أعراض زائلة آخرها الفناء كأطوار الزرع.

واللافت للنظر في الآيتين أن النظم القرآني عبر في سورة الزمر بقوله: (ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ) وفي الحديد بقوله: (ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ) ، وذلك لاختلاف المقامين. يقول الإمام البقاعي: "ولما كان السياق لإظهار القدرة التامة عبر بالجعل مسنداً إليه – سبحانه – بخلاف آية الحديد التي عبر فيها بالكون ؛ لأن السياق للتزهيد في الدنيا وأنها ظل زائل لا حقيقة لها (ثم يكون) أي كوناً كأنه مطبوع عليه ، وأبلغ – سبحانه – في تقرير اضمحلاله بالإثبات مع فعل الكون – هنا – للمبالغة ؛ لأن السياق لتقرير أن الدنيا عدم ، وإن كانت في غاية الكثرة والإقبال ".[1]

ومن هنا يمكن القول بأنه ليس في الآيتين تكرار وإنما هو نظر واعتبار وأن الآيتين بكلماتهما وجمالهما مناسبتان لسياقهما ومقامهما.

١– نظم الدرر للبقاعي: جـ/١٦ ص ٤٨٤ ، جـ/٩ ص ٢٨٩.

وخلاصة ما سبق أن اللون الأصفر في الآيات الثلاث [الروم ، الزمر ، الحديد] قد جاء متضمناً الدلالة السلبية ؛ حيث كان مرتبطاً بالجدب والهلاك ، ويبس النبات.

٢. اللون الأصفر ودلالة التخويف والتهويل في الآخرة

وفي سياق انتقال القرآن الكريم إلى موقف الحساب والجزاء في الآخرة ، جاء اللون الأصفر واصفاً شرر النار التي أعدها الله للمكذبين ، وذلك في قوله تعالى:

١. ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ المرسلات: (٣٢ – ٣٣)

فقد ورد اللون الأصفر في الآية الكريمة حاملاً دلالة التخويف والتهويل ؛ لأن الله – تعالى – أراد المبالغة في وصف جهنم وأهوالها فجاء على سبيل التشبيه مبيناً أن جهنم تقذف بشرر عظيم من النار ، كل شرارة منها كأنها القصر العظيم. ثم زاد في التخويف والتهويل ، فشبه شرر جهنم المتطاير منها بالإبل الصفر في لونها وسرعة حركتها.

وعليه فإن التشبيه بالقصر وهو: الحصن تشبيهاً من جهتين: من جهة العِظم ، والطول في الهواء ، وأن التشبيه بالجمالات وهي: القلوس تشبيه من ثلاث جهات: من جهة العظم والطول والصفرة ، قال الرازي: " شبه تعالى الشرر في العظم بالقصر ، وفي اللون والكثرة وسرعة الحركة بالجمالات الصفر".[١] فالجمالات الصفر وهي

---

١ – التفسير الكبير: جـ/٣٠ ص ٢٧٧.

السود التي تضرب إلى الصفرة ترتع هنا وهناك. قال الفراء: (كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ) " والصفر سواد الإبل لا ترى أسود من الإبل إلا وهو مشرب بصفرة ، فلذلك سميت العرب سود الإبل صفراً ".[1] قال الزمخشري: " وقيل (صفرٌ) لإرادة الجنس ، وقيل صفر سود تقرب إلى الصفرة وفي شعر عمران بن حطان:

دعتهم بأعلى صوتها ورمتهم بمثل الجمال الصفر نزاعة الشوى"[2]

ويلحظ أن اللون الأصفر ورد في الآية بصيغة الجمع (صفر) ويحمل معنى السواد ؛ ولذا فقد جاء منفراً ومخوفاً ، حيث كشف عن صورة النار وضخامتها ولونها كشفاً يبعث على الخوف والفزع والهول. وذلك من خلال التشبيه المركب في الآية حيث إنه تشبيه في هيئة الحجم وعظمه مع لونه وحركته.

وهكذا فإن الصورة في الآية مكونة من تشبيهين ، أحدهما تشبيه مرسل مجمل وذلك في قوله: (تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ) والثاني: تشبيه مرسل مفصل وذلك في قوله(كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ)، والتشبيه في الآية من روائع صور التشبيه في القرآن ، لأن الشرارة إذا كانت مثل القصر الضخم ، فكيف يكون حال تلك النار الملتهبة؟! وإذا كانت كالجمالات الصفر الضاربة إلى السواد السريعة في الحركة ، فإنه يدل على قوتها وسرعة لحاقها بالكافرين ، مما يوحي بالتهويل والترويع

٢- معاني القرآن للفراء: جـ/٣ ص ٢٢.

٣- الكشاف: جـ/٤ ص ٦٦٨ - بتصرف.

، أجارنا الله منها بفضله ورحمته. قال ابن عاشور: " وإجـراء تلـك الأوصاف في الإخبار عنها لزيادة الترويع والتهويل ، فإن كانوا يرون ذلك الشرر لقربهم منه فوصفه لهم لتأكيد الترويع والتهويل بتظـاهر السمع مع الرؤية. وإن كانوا على بُعد منه فالوصف للكشف عن حاله الفظيعة ".[1]

وخلاصة ماسبق أن السياق القرآني في حديثه عـن اللـون الأصفر في الدنيا والآخرة قد أتى له بثلاث دلالات معبراً عنها بـثلاث صيغ لغوية مختلفة.

الأولى: الصحة والنضارة والحيوية:

وذلك في سياق وصف بقرة بني إسـرائيل فـي قولـه: (... صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا) وقد جاء اللون بصيغة (أفعل فعلاء) ، حيث دلـت على درجة اللون العالية ، حيث أتبع اللون (صفراء) بصفتين وهمـا (فاقع لونها) ، (تسر الناظرين) مما يدل علـى الصـحة والنضـارة والحيوية للموصوف بهذا اللون ، وهكذا فإن القرآن عنـدما يرصـد أعلى درجة للون الأصفر ، لا شك في أنها تسر الناظرين.

الثانية: النضج الذي يعقبه الجفاف والهلاك

وذلك في سياق وصف الزرع والنبات والتزهيد فـي النعـيم والملذات في ثلاث آيات: [الروم: (٥١) – الزمر: (٢١) – الحديـد: (٢٠)] حيث جاء اللون على صيغة اسم المفعول الدال علـى الحـال (مُصفراً) وهو بذلك ينبه على حالة من أحوال الزرع ، وطـور مـن

٤– التحرير والتنوير: جـ/١٤ ص ٤٣٧.

أطوار تمام نضجه الذي يعقبه الجفاف والهلاك ، تدليلاً على قدرة الواحد القهار.

الثالثة: التخويف والتهويل

وذلك في سياق وصف شرر النار في الآخرة ، حيث ورد اللون بصيغة الجمع (صُفر) مرحباً بالتخويف والترويع والتهويل من النار ؛ لأن شررها إذا كان كالجمال السود التي تميل إلى الصفرة ، فما بالنا بالنار نفسها ! أعاذنا الله منها.

رابعاً: اللون الأزرق والعذاب في الآخرة

يقترب اللون الأزرق في معانيه من اللون الأسود في الثقافة العربية ، ذلك أنه لون كريه؛ لأنه لون المرض والموت والكآبة والحزن.

وقد ورد اللون الأزرق مرة واحدة في القرآن الكريم ؛ وذلك في سياق بيان العذاب الذي أعده الله للمجرمين ، حيث يحشرون زرق العيون أو الأبدان ، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ طه: (١٠٢)

ذهب المفسرون بأن الزرقة في الآية الكريمة هي لون كلون السماء إثر الغروب ، وهو في جلد الإنسان قبيح المنظر ؛ لأنه يشبه لون الإصابة بحروق النار.

وقد اختلف العلماء في دلالة اللون (زرقا) " فمنهم من قال: بأن معناه عطاشاً ، ومنهم من قال بأن معناه: ازرقت أعينهم من شدة العطش ؛ لأن سواد العين يتغير ويزرق من شدة العطش، وقيل: عمياً

يخرجون من قبورهم بصراء كما خلقوا أول مـــرة ، ويعمـــون فـــي المحشر ، وإنما قيل (زرقاً) ؛ لأن السواد يزرق إذا ذهبت نواظرهم ، وقيل: زرقاً: طامعين فيما لا ينالونه ، وقيل: المراد بالزرقة: شخوص البصر من شدة الخوف ".[١]

ويفهم من كلام المفسرين أن اللون الأزرق في الآيـــة تعلـــق بالعيون ، وعليه فإن التعبير بقوله: (زرقـــاً) أي: عيـــونهم ، مجـــاز مرسل علاقته اللزومية ، حيث جاءت زرقة العيون مجازاً عن قباحـــة الصورة ؛ " لأن زرقة عيونهم مستلزمة لكـــون صـــورتهم منكـــرة ، فأطلق الملزوم وأراد اللازم ، فكأنه قيل: نحشرهم على أقبح صـــورة ".[٢] ، وقال القرطبي: " تشوه خلقتهم بزرقة العيون وسواد الوجـــوه "[٣] . وعليه فإن النظم القرآني قد جاء بهـــذا اللـــون (الأزرق) فـــي صورة بغيضة ووصف بها العيون ، وهو موافق لما عليه العرب من كراهية زرقة العين. قال الزمخشري: " الزرقة أبغض شيء من ألوان العيون إلى العرب ؛ لأن الروم أعداؤهم زرق العيون ؛ ولذلك قـــالوا في صفة العدو أسود الكبد ، أزرق العين ".[٤] ، وقـــرر القرطبـــي أن العرب تتشاءم بزرَق العيون وتذمه ".[٥]

١- انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: جـــ/١١ ص ٢٥٩ ، والكشاف للزمخشري: جـــ/٣ ص ٨٤ ، ٨٥ ، وتفسير البيضاوي بهامش حاشية الشيخ زاده: جـــ/٣ ص ٣٣٢ ، والتحرير والتنوير: جـــ/١٦ ص ٣٠٤.

١- حاشية الشيخ زاده على البيضاوي: جـــ/٣ ص ٣٣٢.

٢- القرطبي: جـــ/١١ ص ٢٤٤.

٣- الكشاف: جـــ/٣ ص ٨٤ ، ٨٥.

٤- القرطبي: جـــ/١١ ص ٢٥٩.

وأرى أن في هذا التفسير بعداً عن جوهر الإسلام في تمييز البشر ؛ لأن الأفضلية بينهم إنما تكون بالتقوى والعمل الصالح ، لا بلون العيون ولا بصور الأجساد ، فالله تعالى يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ الحجرات: (١٣). كما أن لون عين كثير من المسلمين أزرق ، ثم إن تفضيل لون على آخر يختلف من شخص إلى آخر ، ومن حالة مزاجية إلى أخرى عند الشخص الواحد.

ومن ثم فإنه يمكن القول بأن الرأي الأقرب للصواب في دلالة اللون (زرقا) هو العمى وإن كانت الدلالات الأخرى جائزة ؛ مبالغة في تنكيلهم وتعذيبهم ، وذلك لمناسبته السياق حيث ذكر اللون في سياق العذاب للمعرضين عن ذكر الله في الآخرة حيث يسميهم القرآن (المجرمين) ويرسم لهم مشهداً يوم القيامة تنفر منه النفس السوية ؛ ولأن القرآن قد صرح بهذا الجزاء للمعرضين عن ذكره – وهو أنهم يُحشرون عمياً – قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ طه: (١٢٤). كما أشار إلى تلك الدلالة ايضاً الراغب في مفرداته: " ... زرقت عينه زُرقة ، وزرقاناً أي: عميت وقوله تعالى: (زرقاً يتخافتون) أي: عمياً عيونهم لا نور لها "[1] ، وقال الفراء: " (زرقاً) أي: عمياً ؛ لأن العين إذا ذهب نورها ازرّق ناظرها ".[2]

١– المفردات للراغب: مادة (زرق) ص ٢١٢.

٢– التفسير الوسيط للقرآن العظيم: حزب/ ٣٢ ص ١٠٦٤.

وعليه فإن قوله (زرقا) من قبيل الكناية عن العمى ؛ لأن الزرقة من لوازم العمى ؛ ولهذا فقد أرجع الزمخشري تفسير لفظ (زرقا) بالعمى إلى تحول فسيولوجي ، حيث قال: " ... لأن حدقة من يذهب نور بصره تزرّق ".[1] ولذا فإن النظم القرآني آثر مجيء اللون الأزرق في قوله: (زرقا) مطلقاً دون تخصيصه بالعيون أو الأبدان كما ذهب إلى ذلك المفسرون ؛ ليشمل العيون والأبدان معاً ؛ وذلك مبالغة في العذاب وزيادة في التنكيل بالمجرمين. يقول صاحب التفسير الوسيط: " ... ويسوق الله المجرمين يومئذ بعد البعث زرق الأجساد أو زرق العيون من أجل ما يحملونه من أوزار وخوفهم من محاسبة العليم القهار ".[2]

ومن ثم فإن تقييد المفسرين الزرقة بالعيون من قبيل المجاز المرسل وعلاقته الجزئية ، حيث أطلقوا الجزء وهو (العيون) وأرادوا الكل وهو (الأبدان). قال ابن عاشور: " وظاهر الكلام أن الزرقة لون أجسادهم فيكون بمنزلة قوله: (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ)".[3]

وخلاصة ما سبق أن اللون الأزرق – هنا – لون بغيض ، حيث وصفت به أجساد المجرمين وعيونهم ؛ ولذا فإنه يحمل دلالة العذاب في الآخرة.

خامساً: اللون الأحمر وعلاقته بالجبال

٣- الكشاف للزمخشري: جـ/٣ ص ٨٥.

٤- التفسير الوسيط للقرآن العظيم: حزب/ ٣٢ ص ١٠٦٤.

٥- التحرير والتنوير: جـ/١٦ ص ٣٠٤.

اللون الأحمر يعبر عن العواطف والمشاعر والاندفاع ، ويرمز إلى الدم الذي منه الحياة، وإلى الحرب والقتال: قال أبو العلاء المعري:

يتهللون طلاقة وكلومهم ينهل منهن النجيع الأحمر[1]

والعرب تضرب الحمرة مثلاً للمكروه والأذى ، وقد جعلت بعض القبائل من اللون الأحمر شعاراً لها قبل الإسلام.

هذا وقد ورد اللون الأحمر في سياق حديث القرآن عن قدرة الله – عز وجل – وكماله في خلق الأشياء المتنوعة المختلفة ، واصفاً الجبال في آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾ فاطر: (٢٧). فالآية الكريمة وما تضمنته من اختلاف ألوان الجبال بين الأبيض والأحمر والأسود ، سيقت للحث والتحريض على النظر في عجائب صنعه – تعالى – وآثار قدرته ، ليؤدي ذلك إلى العلم بعظمة الله وجلاله ، ويؤدي إلى العلم بخشيته. يقول صاحب الظلال: " هذه لفتة كونية عجيبة من اللفتات الدالة على مصدر هذا الكتاب ، تبدأ بإنزال الماء من السماء ، وإخراج الثمرات المختلفات الألوان ، ثم تنتقل إلى ألوان الجبال فهي ألوان الصخور ، شبه عجيب بألوان الثمار وتنوعها وتعددها ، واللفته إلى ألوان الصخور وتنوعها داخل اللون الواحد تهز القلب

٦– النجيع: الدم الأحمر والمراد به الأحمر المكروه والمؤلم ، وليس حمرة الدم ؛ لأن الدم أحمر بالضرورة.

هزاً، وتوقظ فيه حاسة الذوق الجمالي العالي بما يستحق النظر والالتفات إلى هذا الكتاب الكوني الجميل الصفحات ، العجيب في التكوين والتلوين ".[1]

ويلحظ في الآية تقديم المسند (ومن الجبال) على المسند إليه (جدد بيض وحمر) ؛ وذلك للاهتمام بالمقدم والتشويق لذكر المؤخر ، وفيه حث على التأمل والنظر في تنوع ألوان الجبال بما تتضمن من خطط وطرائق أو قطع بين الأبيض والأحمر والأسود شديد السواد. وقد يكون الجبل الواحد به جدد مختلفة ، ودل على ذلك النظم القرآني باستخدام (من) حيث جاءت تبعيضية على معنى: " وبعض تراب الجبل جُدَد ففي الجبل الواحد توجد جدد مختلفة ، وقد يكون بعض الجُدَد بعضها في بعض الجبال ، وبعض آخر في بعض آخر ، والجدد هي ذات الحجارة الحمراء في الجبال ".[2]

ومن ثمّ فإن اختلاف ألوان الجبال وتنوعها دلالة على قدرة الله وكماله في خلق الأشياء.

ويعطينا العلم الحديث تفسيراً لاختلاف ألوان الجبال ، حيث " يقرر علماء الجيولوجيا أن اختلاف ألوان الجبال يرجع إلى اختلاف المواد التي يُكوّن ضخورها ، فالتي من حديد يجعل لونها السائد أحمر ، أو من منجنيز يجعل لونها أسود ، أو من نحاس يجعله أصفر وغير ذلك ، ليس ذلك فحسب ، وإنما يرجع الاختلاف – أيضاً – إلى ما يسمى بالصهارة التي تنبثق في أماكن مختلفة من الأرض ، وعلى

١- في ظلال القرآن ، سيد قطب: جـ/ ٥ ص ٥٦٧٠.

٢- التحرير والتنوير – الطاهر بن عاشور: جـ/ ٢٢ ص ٣٠٢.

أعماق مختلفة من السطح ، فيعتري تركيبها الاختلاف فتتصلب آخر الأمر من كتل أو جبال مختلفة المادة واللون ".[١]

ويقول الدكتور/ زغلول النجار: " فالألوان التي ذكرها القرآن الكريم هي السائدة للصخور النارية التي يكون غالبيته الغلاف الصخري للأرض ، وهي إما أن تكون صخور حامضية أو متوسطة بيضاء وحمراء اللون أو قاعدية التركيب داكنة اللون وهذه الصخور عادة ما تكون لباب السلاسل الجبلية ".[٢]

والملاحظ أن النظم القرآني أتبع بيان اختلاف ألوان الجبال من بيضاء وحمراء بقوله: (مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا) ؛ وذلك دلالة على أن هذين اللونين (الأبيض والأحمر) للجبال يظهران بدرجات متفاوته. في حين أكد اللون الأسود للجبال بقوله: (وَغَرَابِيبُ سُودٌ) وذلك من خلال التقديم والتأخير في هذا التركيب ، وفيه دلالة على شدة درجة اللون الأسود من خلال آلية لغوية هي: الاتباع ، " وذلك أن العرب تقول هو أسود غربيب إذا وصفوه بشدة السواد ، وجعل السواد – هنا – صفة للغربيب ".[٣]

وقد اشار الإمام الزمخشري إلى أن في تقديم التأكيد على المؤكد (وَغَرَابِيبُ سُودٌ) زيادة في التوكيد ؛ حيث يدل على المعنى

١– الإعجاز العلمي في الإسلام (القرآن الكريم) د. محمد كامل عبد الصمد ، ط/ السادسة ٢٠٠٦م ، الدار المصرية اللبنانية ، ص ١٠١. .

٢– محاضرة المدلول العلمي للجبال في القرآن الكريم – بتاريخ: ١٩٩٤/٨/٩م نقلاً عن كتاب الإعجاز في القرآن والسنة د. كارم السيد غنيم: ص ٦٩ ، ٧٠.

٣– تفسير الطبري: جـ/ ١٠ ص ٤٠٩.

الواحد من طريقي الإظهار والإضمار جميعاً "[1] ؛ ولذا لم يتبع بقوله (مختلف ألوانها).

ويكشف العلم الحديث عن الإعجاز البلاغي في هذه الآية الكريمة من حيث اتباع اللونين الأبيض والأحمر في الجبال بقوله: (مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا) وتأكيد اللون الأسود في الجبال بقوله (وَغَرَابِيبُ سُودٌ) ، وأن مرجع ذلك هو تكوين صخور الجبال ، وظهور هذه الألوان في الجبال بدرجات متفاوتة. يقول الدكتور/ زغلول النجار: " ولعل ذلك إشارة إلى كل من الجبال الحامضية وفوق الحامضية في تركيبها الكيميائي والمعدني ، والتي تتكون أساساً من الصخور الجرانيتية وشبه الجرانيتية ، ويطغى عليها اللونان الأبيض والأحمر بدرجات متفاوتة ، ولذلك قال ربنا: (مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا) والجبال القاعدية وفوق القاعدية التي تتكون أساساً من صخور خضراء اللون داكنة الخضرة إلى سواد اللون من مثل جبال أواسط المحيطات. (وفي اللغة العربية يوصف الأخضر بالسواد ، والأسود بالخضرة) ، ولكل نوع من هذين النوعين من الجدد نشأته الخاصة ، وتركيبه الكيميائي والمعدني الخاص بصخوره ".[2]

واستخدام القرآن للألوان في الآية الكريمة من قبيل طباق التدبيج على اعتبار أن البياض كناية عن الطرق الواضحة ، والسواد

٤- انظر: الكشاف للزمخشري: جـ/ ٣ ص ٥٩٢.

١- المفهوم العلمي للجبال في القرآن الكريم: جـ/٣ ص ٤٠ ، ضمن سلسلة من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم: د/ زغلول النجار ، ط/ السادسة ٢٠٠٤م مكتبة الشروق الدولية.

كناية عن الطرق غير الواضحة ، واللون الأحمر كناية عن المشتبه من الطرق .. بيد أن واقع هذه الألوان وإن كان بينها تقابل إلا أنها تصف مشهداً من مشاهد الطبيعة الجبلية التي خلقها الله – سبحانه وتعالى – لتلك الألوان البديعة التي لا يقدر عليها إلا العليم الخبير. ومن التعسف أن نخرجها على الكناية عن الطرق الواضحة والمشتبه ؛ لأن السياق كله يرشد إلى صرف الأنظار إلى مخلوقات الواحد القهار ، وأن العلماء هم أصحاب النظر الدقيق في التعرف على دقائق هذه النعم العظام ؛ ولذلك ختمت الآيتين بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ فاطر: (٢٨)

المحور الثالث
الألوان بدلالة المفهوم

ينتقل بنا السياق القرآني من الحديث عن الألوان بمدلوليها العام والخاص إلى الحديث عن الألوان بدلالة المفهوم ، وذلك من خلال الألفاظ الدالة على الألوان ، وكذلك التشبيهات التي يفهم منها الدلالة على الألوان.

أولاً: الألفاظ الدالة على الألوان:

وردت عدة ألفاظ في القرآن الكريم يفهم منها ألوان محددة كالأسود والأبيض والأسود من شدة الخضرة ، ومنها: [قترة – غبرة – ذلة – مسفرة – ضاحكة – مستبشرة – ناضرة] وذلك في الآيات الآتية:

١ – الأبيض والأسود في الآخرة

١. قوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ يونس: (٢٦)

٢. قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ يونس: (٢٧)

٣. قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ عبس: (٣٨ – ٣٩)

قوله تعالى: ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ ﴾ عبس: (٤٠ – ٤١)

٤. قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ القيامة: (٢٢ – ٢٥)

والمتأمل في الآيات يجد أنها تصور لنا مشهداً من مشاهد الآخرة ، تصف من خلاله وجوه أصحاب الجنة بأنها (ناضرة) حسنة من أثر النعيم والفرح ، ويتأتى ذلك من أثر الانفعالات التى تنشر السعادة على الوجوه ، كما وصف وجوههم بأنها (مسفرة) أي ذات إسفار وهو النور والضياء ، فوجوههم متهللة فرحاً وعليهم أثر النعيم ، وهي وجوه (ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ) أي: فرحة مسرورة ، ومعروفة بنضرة النعيم التي تكسوها ، وتتمثل في ملامح البهجة والسرور. جعلنا الله منهم. في حين وصفت الآيات وجوه أصحاب الجحيم بأنها (باسرة) أي: كالحة من تيقن العذاب وهي مكسوة بالغبار والقترة ، وهو سواد ودخان يغشي الوجوه من الكرب والغم. أعاذنا الله منهم.

ومن ثمّ فقد جاء اللون الأسود مفهوماً من دلالة لفظتي (القترة والذلة) ، وذلك في آيتي يونس (٢٦ ، ٢٧) ، حيث جاء السياق القرآني فيها مُعِّرضاً بالذين لم يهدهم الله إلى صراط مستقيم ، وهم الذين كسبوا السيئات ، ومخبراً عن سواد وجوههم في الآخرة ؛ وذلك من خلال القترة والذلة التي تعتري وجوه الكفرة في الآخرة.

والذي وقفت عليه من كلام الأئمة أن القترة: " لون يغشي الوجه من شدة البؤس والشقاء والخوف ، وهو من آثار تهيج الكبد من ارتجاف الفؤاد خوفاً وتوقعاً. والذلة: الهوان. والمراد أثر الذلة

الذي يبدو على وجه الذليل ".[1] فالتعبيرالقرآني إذن في قوله تعالى (...وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ) مستعمل في صريحه وكنايته ، أي لا تشوه وجوههم بالقتر وهو الغبار والسواد وأثر الذلة ، ولا يحصل لهم ما يؤثر القتر وهيئة الذلة ، وذلك في حق الذين أحسنوا الحسنى وزيادة.

" والتعبير يوحي بأن في الموقف من الزحام والهول والكرب والخوف والمهانة ما يخلع آثاره على الوجوه ، فالنجاة من هذا كله غنيمة وفضل من الله يضاف إلى الجزاء المزيد فيه"[2]

وعليه فقد جاء اللون الأسود في الآية الأولى مفهوماً من القترة والذلة المنفيان عن الذين أحسنوا الحسنى وزيادة ، وذلك عن طريق التعريض بالذين كسبوا السيئات ؛ تعجيلاً بالمساءة إليهم بطريق التعريض قبل التصريح الذي يأتي في قوله: (وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞ...).

كما ورد لون السواد المفهوم من لفظ (الذلة) في الآية الثانية بطريق الكناية في حق أصحاب النار ، وذلك في قوله: (وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ... وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ) الآية.

والملاحظ في الآية الثانية أن النظم القرآني اقتصر فيها على (الذلة) لهم دون زيادة (وترهقهم قتر) ؛ لأنه سيجيء ما هو أشد منه وهو قوله: (كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ) وهو بيان لقوله:

١- انظر: الكشاف للزمخشري: جـ/٢ ص ٣٣ ، وابن كثير: جـ/٢ ص ٧٨ ، والظلال: جـ/٣ ص ١٧٧٩.

٢- في ظلال القرآن: جـ/٣ ص ١٧٧٩.

(وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ) ، ولذلك فصل بينهما لكمال الاتصال. وعليه فإنه يفهم اللون الأسود – أيضاً – من قوله: (كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا) حيث إن وجوههم من فرط السواد والظلمة كأنما أُلبست قطعاً من ظلام الليل ، وذلك عن طريق التشبيه المرسل المجمل ، حيث شبه أثر الذلة التي تبدو على وجوههم بظلام الليل من شدة السواد ، وليس هذا فحسب ، بل جاء اللون الأسود مؤكداً بأنه أسود حالك ، وذلك من خلال المفهوم من وصف الليل الذي هو زمن الظلمة بكونه (مظلما) " لافادة تمكن الوصف منه كقولهم: ليل أليل ، وظل ظليل ، وشعر شاعر ، فالمراد من الليل الشديد الإظلام باحتجاب نجومه وتمكن ظلمته ".[1]

ومن ثم فقد اجتمع في الدلالة على اللون الأسود في الآية لفظ (الذلة) والتشبيه المرسل المجمل والذي رسم لنا صورة حسية للظلام النفسي والكدرة التي تغشى وجه المكروب المأخوذ المرعوب. فكأنما أخذ من الليل المظلم فقطع رقعاً غشيت بها هذه الوجوه.

وهكذا " يغشى الجو كله ظلام من ظلام الليل الحالك ورهبة من رهبته تبدو فيه هذه الوجوه ملفعة بأغشية من هذا الليل البهيم ".[2]

وينتقل بنا السياق القرآني إلى الحديث عن اللون الأبيض المفهوم من وصف وجوه المؤمنين في الجنة بأنها (مسفرة)

١- التحرير والتنوير: جـ/١١ ص ١٤٩.

٢- في ظلال القرآن: جـ/٣ ص ١٧٧٩.

والإسفار هو النور والضياء. وأنها (ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ) أي: فرحة مسرورة كناية عن السرور والفرح الذي يظهر على الوجه بياضاً ناصعاً ، قال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ عبس: (٣٨ – ٣٩). " فوجوه المؤمنين مضيئة متهللة – من أسفر الصبح إذا أضاء – وفرحة مسرورة لما يرى عليها من أثر النعيم ".[١]

كما وصفت وجوه المؤمنين – أيضاً – بأنها (ناضرة) في قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ القيامة: (٢٢ ، ٢٣). يقول المفسرون: ناضرة أي: " بهية متهللة ، ومنيرة مشرقة كالهلال من المسرة ، مستغرقة في مطالعة جماله – تعالى – بحيث تغفل عما سواه ".[٢]

واللافت للنظر في الآيات أن أوصاف وجوه المؤمنين في الجنة والدالة على البياض جاءت في صياغة الجملة الاسمية مما يدل على ثبات صفة الإشراق لوجوههم ودوام بياضها ، كما جاء بها السياق في جواب الشرط (إذا) في قوله: (فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ...) مما يدل على تحقق وقوع هذا الوصف للوجوه وتأكيده.

كما جاءت صفتي (ضاحكة ومستبشرة) كناية عن السرور والفرح ، والسين والتاء في قوله (مستبشرة) مبالغة في الاستبشار والفرح ؛ لما تعلم من المصير الذي تصير إليه.

٣– انظر: الكشاف: جـ/٤ ص ٦٩٢ ، البيضاوي: جـ/٨ ص ٣٢٥ ، والتحرير والتنوير: جـ/٣٠ ص١٣٧.

٤– البيضاوي بحاشية الشهاب: جـ/٨ ص ٢٨٣.

وفي إسناد الضحك والاستبشار إلىالوجوه فـــي قولـــه: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ) مجاز عقلي وعلاقته المحلية أو المكانية ؛ لأن الوجوه محل ظهور الضحك والاستبشار ومكانه.

وفي التعبير بلفظ الوجوه في وصف أهـــل الجنـــة: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ...) (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ...) مجاز مرسل علاقته الجزئية ، حيث عبر القرآن بالوجه وأراد الذات ، وفيه مبالغة في الثواب والنعيم ، حيـــث إن الإشراق والبياض يعم جميع بدن أهل الجنة ، ولكنه خص الوجوه ؛ لأنها محل ذلك ، وهي مناط الفرح والسرور والإشراق والاستبشار.

وعلى النقيض من ذلك ينتقل السياق القرآني إلى الحديث عن اللون الأسود المفهوم من وصف وجـــوه الصـــنف الآخـــر المقابـــل للمؤمنين وهم أهل الكفر والفجور ، حيث يعلوها الغبـــار والســـواد ، وذلك في قوله تعـــالى: ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾ عبس: (٤٠ – ٤٢). فـــ(الغبرة) " غبـــار وكـــدورة يعلوها وهو تغير في اللون و(القترة) سواد وظلمـــة كالـــدخان ، ولا ترى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد في الوجه كما ترى من وجوه الزنوج إذا اغبرت ، وكأن الله – عز وجـــل – يجمـــع إلـــى ســـواد وجوههم الغبرة ، كما جمعوا الفجور إلى الكفر ، وذلـــك زيـــادة فـــي تشهير حالهم الفظيع للسامعين ".[1]

١– انظر: الكشاف: جـــ/٤ ص ٦٩٢ ، البيضاوي: جـــ/٨ ص ٣٢٥ ، والتحرير والتنوير: جـــ/٣٠ ص١٣٧.

ويلحظ أن وصف وجوه الكافرين بالغبرة والسواد قد جاء – أيضاً – بصياغة الجملة الاسمية ، وجوباً لإذا (فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ...) مما يدل على ثبات هذه الصفة ودوامها وتحقق وقوعها لأهل الكفر والفجور ، مما يبين الفارق بين الصنفين ، والبون الشاسع بينهما. صنف المؤمنين ، وصنف الكافرين.

وثمة آيات أخرى تصف وجوه الكافرين بأنها (باسرة) ، وذلك في قوله: (وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ) القيامة: (٢٤ ، ٢٥) أي: " شديدة العبوس كالحة يظهر على وجوههم الكلوح من أثر الخوف من أن يفعل بها داهية تكسر الفقار ".[1]

وخلاصة ما سبق أن السياق القرآني في الآيات السابقة قد تحدث عن اللونين الأبيض والأسود من خلال المفهوم من الألفاظ الدالة عليهما بمعونة السياق والمقام وهي: [مسفرة – ضاحكة – مستبشرة – ناضرة – قترة – غبرة – باسرة] وذلك في مشهد من مشاهد الآخرة ، واصفاً وجوه المؤمنين والكافرين ، وكاشفاً عن أثر المصير الذي سيؤول إليه أصحاب الجنة وأصحاب السعير. وذلك بطريق الكناية عن التنعيم لأصحاب الجنة والتنكيل لأصحاب الجحيم.

٢ – الأسود من شدة الخضرة في الدنيا

ورد اللون الأسود من شدة الخضرة في سياق حديث القرآن عن قدرة الله – عز وجل – في مخلوقاته وتصاريفه فيها من أطوار مختلفة من الشيء إلى ضده ؛ تذكيراً بالفناء بعد الحياة ، ومن ذلك

٢– حاشية الشهاب على البيضاوي: جـ/٨ ص ٢٨٣.

النبات الذي ترعاه الدواب التي ينتفع بها الناس ، فإن الله يتصرف فيه بقدرته فيجعله بعد خضرته يابساً أسود. وذلك في قوله: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ﴾ الأعلى:(٤-٥).

فقد جاءت كلمة (أحوى)صفة لغثاء وهو النبات اليابس بمعنى أسود ، " فالأحوى صفة من الحُوّه ، وهي من الألوان: سمرة تقترب إلى السواد ، وقيل: أحوى حال من المرعى أي: أخرجه – أحوى: أسود من شدة الخضرة والرّي فجعله غثاء بعد حوية ".[1]

ويفهم من كلام المفسرين أن كلمة (أحوى) إما أن تكون صفة لغثاء أو حال من المرعى، وتحتمل معنيين: إما أن تكون (أحوى) بمعنى أسود ؛ لأن النبات إذا يبس اسوّد فهو صفة مؤكدة للغثاء ، وإما أن يراد بها شدة الخضرة ؛ لأن الأخضر يرى في بادئ النظر كالأسود.

والذي أميل إليه: هو أن (أحوى) بمعنى أسود من شدة الخضرة ، وذلك لموافقته السياق، ولأن اللون الأسود للنبات يشير إلى زواله وفنائه بعد نضارته واخضراره ، وفيه تدليل على قدرة الله – عز وجل – في خلقه ، ولموافقته – أيضاً – الاستعمال العربي ، حيث " أطلق العرب السواد على الشجر لخضرته ومقاربة الخضرة للسواد ، كما عبر العرب عن السواد إذا مال إلى الخضرة بكلمة " أحوى " وكلمة " أقهب " ".[2] ، ولكونه صفة مؤكدة لـ" غثاء " المراد به " ما يبس من النبات وصار هشيماً يقذفه السيل على جانب

١- انظر: الكشاف: جـ/٤ ص ٧٢٦ ، والتحرير والتنوير: جـ/٣ ص ٢٧٨.

٢- اللغة واللون – د/ أحمد مختار عمر: ص ٤١ ، ص ٤٦.

الوادي ".[1] فالنبات إذا يبس اسوّد؛ وذلك لاحتراقه من شدة الحر ، أو لتعلق به أجزاء كدرة عندما يحمله السيل ، أو لما يلصق به من الغبار عندما تحمله الريح فيسود بذلك.

ومن ثمّ فإن في هذا الوصف (أحوى) بمعنى: اللون الأسود من شدة الخضرة استحضار لتغيِّر لون النبات إلى اليبس والسواد بعد أن كان أخضر يانعاً ، وإشارة إلى الزوال والفناء ، التي هي سنة الله في مخلوقاته ، والدليل الواضح على تصرفه – تعالى – بالإنشاء والإنهاء. ولأهمية هذا الأمر آثر النظم القرآني طريق الاطناب ، حيث أعاد الاسم الموصول في قوله: (وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ) مع اغناء حرف العطف عن تكريره ؛ وذلك للاهتمام بمضمون هذه الصلة وإثباتها لمدلول الموصول وهو الله – سبحانه وتعالى.

ويلحظ عطف قوله: (فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ) على قوله (وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ) بالفاء التي تفيد التعقيب والسرعة ؛ وذلك إشارة إلى قصر المدة بين إنبات النبات ونضارته ، وبين فنائه وقصر مدة نضارة الحياة للأشياء ، مما يوحي بالتذكر بسرعة الفناء بعد الحياة.

ثانياً: التشبيهات الدالة على الألوان

وردت تشبيهات في القرآن الكريم يفهم منها بعض الألوان ، كالأبيض ، والأحمر المحمود ، وذلك في أربع آيات اثنتان يفهم منها اللون الأبيض ، واثنتان يفهم منها اللون الأحمر، وذلك في سياق حديث القرآن عن يوم القيامة ونعيم أهل الجنة:

٣– حاشية الشيخ زاده: جـ/٤ ص ٦٤٨.

١- الأبيض في الآخرة

١. قوله تعالى: ﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ (الصافات:٤٨-٤٩)

٢. قوله تعالى: ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ ﴾ (الواقعة: ٢٢ - ٢٣)

والملاحظ أن اللون الأبيض يفهم من التشبيه في الآية الأولى ، حيث يدل على الصفاء والنقاء لأبدان الحور العين ، فقد شبه القرآن الكريم الحور العين بالبيض المكنون وهو: بيض النعام المصون عن الغبار ونحوه ، وذلك في الصفاء والبياض المخلوط بأدنى صفرة ، فإنه أحسن ألوان النساء. قال الزمخشري: " شبههن ببيض النعام المكنون في الأواصي ، وبها تشبه العرب النساء ، وتسميهن ببيضات الخدور ".[١]

هذا وقد تباينت آراء العلماء حول المراد من وجه الشبه في الآية ، فمنهم من ذهب إلى أنه النعومة والطراوة ؛ وذلك متحقق في البيضة بعد طبخها ، ومنهم من رأى أنه: تناسب الاجزاء في حين رأى آخر أنه الصفاء والبياض المخلوط بصفرة ".[٢]

وأرى أن التشبيه في الآية الكريمة قد جمع في وصفه للحور العين اللون والهيئة ورقة الملمس فهن كالبيض المصون الذي لم

١- الكشاف للزمخشري: جـ/٢ ص ٣٠١.

٢- انظر: البحر المحيط: جـ/٧ ص ٣٥٩ ، والبيضاوي بحاشية الشهاب: جـ/٧ ص ٢٧٠ ، ومختصر ابن كثير: جـ/٣ ص ١٧٩ ، وروح المعاني: جـ/٣ ص ٩٠ ، والتحرير والتنوير: جـ/٢٢ ص ١١٤.

تمسه الأيدي في الصفاء والبياض والرقة والطراوة ، وتناسب الأجزاء ، وأنهن مع هذا الجمال الباهر مصونات كالدر في أصدافه مع رقة ولطف ونعومة. وهذا من روائع التشبيه في القرآن.

ومن ثمّ فقد أدى اللون الأبيض المفهوم من تشبيه نساء الجنة بالبيض المكنون دوراً مهماً في إيناس أصحاب الجنة وامتاعهم.

وفي الآية الثانية يأتي اللون الأبيض مفهوماً من التشبيه المرسل المجمل حيث شبه الحور العين باللؤلؤ المكنون أي: " المصون عما يضرّ به في الصفاء والنقاء والبياض ؛ لأنهن لم يُمتهن في الخدمة فلا ينتثرن انتثار الولدان ".[1]

ولا يخفى أن اللون الأبيض المفهوم من التشبيه في الآيتين قد ورد في سياق بيان النعيم الحسي الذي أعده الله للمؤمنين في الجنة ، حيث يظهر على وجوههم استبشاراً وفرحاً بالنعيم ، ويتمتعون به من خلال رؤية الحور العين ، فما أعظمه من جزاء ! وما أوفاه من نعيم !

وهكذا فقد قام اللون الأبيض المفهوم من وجه الشبه في الآيتين – وهو الصفاء والنقاء والبياض – ببيان المعاني الحسية والنفسية اللطيفة في الحور الواسعات العيون ، والناصعات اللون ، بحيث يتمتع المقربون بجمال ألوان عيونهن وبياض وجوههن وأجسادهن وذلك النعيم قد حظوا به وسُعدوا بمثاله جزاء بما كانوا

١- انظر: البيضاوي بهامش الشهاب: جـ/٨ ص ١٤٣ ، وحاشية الشيخ زاده: جـ/٤ ص ٥٩٢.

يعملون في الدنيا من الطاعات وينأون عن السيئات ، وفيه إلهاب وتهييج للمؤمنين في الدنيا بالعمل الصالح ؛ حتى ينالوا هذا النعيم المقيم في الآخرة.

٢- اللون الأحمر في الآخرة

١. قوله تعالى:﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ ﴾ الرحمن: (٣٧)

٢. قوله تعالى: ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ﴿٥٨﴾ ﴾ الرحمن: (٥٨)

ورد اللون الأحمر في الآية الأولى مفهوماً من تشبيه السماء عند انشقاقها بالوردة في حمرة لونها ، وذلك في سياق ذكر أهوال الحشر وما يقع فيه للمجرمين ، فقد ذهب أكثر المفسرين إلى أن المراد من تشبيه السماء حين انشقاقها يوم القيامة بـ(الوردة) هو شدة الحمرة ؛ لأنها تذوب مع الإنشقاق فيتغير لونها المعروف أنه أزرق إلى البياض ، فيصير لونها أحمر من حرارة نار جهنم ، وتصير مثل الدهن لرقتها وذوبانها. وقيل: الدهان: الجلد الأحمر الصرف "[1]

هذا وقد تعددت آراء المفسرين حول المقصود بقوله: (وَرۡدَةً كَٱلدِّهَانِ) " فمنهم من قال: " كالفرس الورد " الذي يتلون بألوان مختلفة فهو في الربيع أصفر ، وفي الشتاء أحمر وأغبر ، ومنهم من يرى أنها كصب الدهن الذي يرى فيه ألواناً مختلفة ، في حين ذهب

٢- انظر: الطبري: جـ/١١ ص ٥٩٨ ، والقرطبي: جـ/٩ ص ٦٣٤٣ ، والزمخشري: جـ/٤ ص ٤٨.

آخرون أن المراد بقوله: (وَرْدَةً كَالدِّهَانِ) أي: كوردة كانت مثل الورد الأحمر من حرارة النار ".[1]

وعليه فإن المترتب على الرأي الأول أن السماء يوم القيامة ستصير بألوان مختلفة منه الأصفر والأحمر والأغبر ، وذلك من الفزع الأكبر ، والمترتب على الرأي الثاني أن السماء يوم القيامة سترى باللون الأحمر فقط. والثاني هو ما أميل إليه ؛ لأن اللون الأحمر " من الألوان التي لها علاقة بالنار والحرارة ، وله تأثير سلبي على القلب والأوعية الدموية والعظام ".[2] ومن ثمّ فإنه يوحي بالخوف والفزع المناسبان للسياق والمقام.

ويلحظ أن التشبيه الدال على اللون الأحمر هو من التشبيه البليغ ، وذلك في قوله: (فَكَانَتْ وَرْدَةً) أي: حمراء كوردة ، حيث حذفت منه الأداة ووجه الشبه وهو شدة الحمرة ، ومن ثمّ فإن فيه تأكيداً على تغير لون السماء إلى اللون الأحمر والمبالغة في شدة الحمرة ، وذلك من شدة نار جهنم يومئذ ، ويجوز " أن يكون تشبيه السماء بالوردة في كثرة الشقوق كأوراق الوردة".[3] ولا مانع من ذلك ، فالموقف يوم الحشر فيه أهوال عظام من تشقق السماء واحمرارها ، وهذا ما يوحي به التشبيه البليغ لما فيه من قوة دعوى الاتحاد بين الطرفين مع عموم الصفات.

١- انظر: الطبري: جـ/١١ ص ٥٩٨ ، والقرطبي: جـ/٩ ص ٦٣٤٣ ، والزمخشري: جـ/٤ ص ٤٨.

٢- الألوان في القرآن ، أحمد رأفت: ص ٤٨ ، ص ٥٢.

٣- التحرير والتنوير: جـ/٢٧ ص ٢٦١.

هذا وقد قُرئت الآية برفع وردة (فكانت وردةٌ)على أن كان تامة بمعنى: فحصلت سماء وردة ، وعليه فتكون الآية من باب التجريد وهو: " أن ينتزع من أمر ذي صفة أمر آخر مثله في تلك الصفة مبالغة في كمالها فيه ".[1]

فيكون قد جرد من السماء سماء أخرى مسماة بالوردة ، وذلك مبالغة في الحالة التي تكون عليها السماء من شدة الحمرة ، وكأن السماء عند انشقاقها تظهر منها سماء أخرى تشبه الوردة ، وذلك بتغير لونها من الأزرق إلى الأحمر ، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ إبراهيم: (٤٨) ، وليس هذا فحسب ، ولكن النظم القرآني أتبع هذا التشبيه بتشبيه ثانٍ للسماء وهو قوله: (كالدهان) ، وذلك " في التموج والاضطراب ، وقيل: في اللون الأحمر ؛ لأن الدهان هو الأديم الأحمر "[2] ؛ ولذا فهو يوحي بالخوف والفزع والاضطراب في هذا اليوم.

ويلحظ أن التشبيه الدال على اللون الأحمر في الآية ورد في صياغة الجملة الشرطية وأداتها " إذا " وفيه دلالة على تحقق الوقوع ، وكذلك حذف جوابها ، وتقديره: كان ما كان مما لا تطيقه قوة البيان ، أو وجدت أمراً هائلاً ، أو رأيت ما يذهل الناظرين ، وفي هذا الحذف إيحاء بهول الموقف وشدته ، لتذهب فيه نفس السامعين كل مذهب.

٤- الإيضاح للخطيب الفزويني: ص ٢٦١.

١- انظر: البيضاوي بهامش الشهاب: جـ/٨ ص ١٣٦ ، والتحرير والتنوير: جـ/٢٧ ص ٢٦٢.

وهكذا فالمشهد يخيم عليه الخوف والفزع وتوقع الهلاك للمجرمين يوم القيامة ، وقد تآزرت الدقائق الأسلوبية في الآية الكريمة من الجملة الشرطية ، وحذف جوابها ، والتشبيه البليغ، والتجريد البديعي ، مع وصف السماء يوم القيامة باللون الأحمر ، وإيحائه بالخوف والفزع على نقل مشهد من مشاهد يوم القيامة ، وما يقع فيه من أهوال المحشر ، حتى يحقق الغاية منه وهو بث الرعب والخوف في نفوس المجرمين ، وهو ما قصده السياق القرآني.

وفي الآية الثانية يأتي اللون الأحمر مع الأبيض ضمن مشهد آخر من مشاهد الآخرة ، وذلك في سياق البشارة لما يعطاه المتقون من النعيم والحبور. فقد ذهب المفسرون إلى أن المراد من قوله تعالى: ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ الرحمن: (٥٨) تشبيه قاصرات الطرف بالياقوت والمرجان في حمرة الوجنة ، وبياض البشرة وصفائها ".[١]

وعليه فقد جاء اللونان الأحمر والأبيض مفهومين من التشبيه المرسل المجمل في الآية حيث شبه الحور العين بالياقوت في حمرة الوجنة وصفاء اللون. أي أن وجه الشبه هو الحمرة المحمودة أي: حمرة الخد كما يشبه الخد بالورد. كما شبههن بالمرجان: وهو صغار اللؤلؤ في بياض البشرة وصفاء لونها. فقد قيل: " إن الحوراء تلبس

٢- انظر: البيضاوي بهامش الشهاب: جـ/٨ ص ١٣٨ ، وحاشية الشيخ زاده: جـ/٤ ص ٤٣٦ ، والتحرير والتنوير: جـ/٢٧ ص ٢٧٠.

سبعين حلة ، فيُرى مخ ساقها من ورائها كما يُرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء ".[1]

وهكذا فإنه يتبين لنا الفرق بين مجيء اللون الأحمر هنا ومجيئه في الآية السابقة حيث إن الحمرة في الآية السابقة ليست محمودة ؛ وذلك لمجيئه في سياق ما يقع للمجرمين من الفزع والهلاك.

ومن ثمّ فقد أدى اللون الأحمر المفهوم من التشبيه في الآيتين السابقتين دورين مختلفين ، وذلك لوقوعه في سياقين مختلفين ، حيث أدى دور الخوف والهلاك وبث الفزع والرعب ؛ وذلك لوروده في سياق العذاب والتنكيل بالمجرمين.

في حين أدى دور الامتاع النفسي والنعيم الحسي لأهل الجنة من خلال رؤية الحور العين بهذا الجمال الرائع الذي يجذب الأنظار ، ويأسر القلوب ، وذلك لوروده في سياق البشارة بالنعيم للمتقين.

٣- الكشاف: جـ/٤ ص ٢٤٢.

الخاتمة

﴿ ... ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ... ﴾ الأعراف: (٤٣)

وبعد:

فلقد كانت رحلة روحية أدبية ممتعة طوفنا من خلالها بين أرجاء كتاب الله – عز وجل – بصحبة حديثه عن الألوان وقد حاولنا التعرف على دلالاتها والكشف عن أسرارها البلاغية من خلال سياقاتها ومقاماتها القرآنية. وها نحن قد وصلنا إلى خاتمة البحث ونهاية المطاف ؛ لنرصد أهم النتائج التي أسفر عنها البحث وهي كالآتي:

(١) بلغت آيات الألوان في القرآن اثنتين وأربعين آية ست بمدلولها العام ، وسبع وعشرون بمدلولها الخاص ، وتسع بدلالة المفهوم.

(٢) جاءت الألوان في القرآن على ثلاثة أنواع:

الأول: الألوان بصفة عامة ، والمراد منها إظهار دقة خلق الكون وتناغم ألوانه في الجمادات والكائنات الحية ، كما في قوله عن العسل: ﴿ ... تُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ ... ﴾ النحل: (٦٩) وقوله عن النبات: ﴿ ... فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ... ﴾ فاطر: (٢٧) وقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ... ﴾ فاطر: (٢٨) إلى غير ذلك من الآيات.

الثاني: الألوان بصفة خاصة ، والمراد منها إيضاح درجة اللون ومدى تأثر نفس السامع بهذه الدرجة وقد ذكر القرآن الكريم معظم الألوان الأساسية وهي: الأبيض والأسود ، والأخضر والأصفر ، والأزرق والأحمر ، أشيعها في القرآن الكريم الأبيض والأقل شيوعاً الأزرق ، كما ذكر اللون المركب مثل الدهمة وهي الخضرة التي تميل إلى السواد.

الثالث: الألوان بدلالة المفهوم ، وقد تنوعت الألوان بدلالة المفهوم بين الأبيض وهو الأشيع ثم يتبعه الأسود فالأحمر ، وقد جاء الموصوف بها في الآخرة في سياق النعيم لأهل الجنة و العذاب لأهل النار ما عدا موضعًا واحدُا ورد في الدنيا وهوقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ﴾ الأعلى: (٤ – ٥).

(٣) الألوان بدلالة المفهوم أبلغ في التنعيم لأهل الجنة من الألوان بمدلولها الخاص ؛ وذلك لدلالتها على اللون وزيادة في التنعيم ، من خلال بيان أثره على ملامح الوجه من النضرة والسرور والإسفار والاستبشار.

(٤) كان التشبيه أحد الوسائل التي دلت على بعض الألوان من خلال المفهوم كالأبيض والأسود ، والأخضر المائل إلى السواد ، والأحمر، وذلك بمعونة المقام وسياق الكلام.

(٥) جاءت آيات ذكر الألوان بمدلوليها العام والخاص من باب الإيضاح بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال. حيث جاءت الألوان بمدلولها العام مجملة ومبهمة ، في حين جاءت الألوان بمدلولها الخاص موضحة ومفصلة لما أجملته الآيات الأولى ، حيث الاختلاف

بين أحوال الناس في الدنيا والآخرة ودرجة تأثر وجوههم ، وكذا التنوع في الزروع والثمار والجبال والحيوان في نوع ودرجة الألون.

(٦) تنوعت صيغ ألفاظ الألوان في الاستعمال القرآني بين الاسمية والفعلية ، وغلبت عليها الصيغ الاسمية فبلغت اثنتي عشرة صيغة في حين اقتصرت الصيغ الفعلية على صيغتي "افْعَلّتْ " (ابيضت) في الماضي و"تفّعل" (تبّيض) في المضارع ؛ وذلك لدلالة ثبوت ودوام اللون للموصوف به في الجملة الاسمية. ودلالة التجدد والحدوث في الفعلية ؛ لمناسبة التحول من البياض كناية عن العمى لسيدنا يعقوب – عليه السلام – ﴿ ... وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ ﴾ إلى الإبصار ، ومن البياض إلى السواد كناية عن سوء المنقلب بسبب سوء الأعمال في الدنيا فربما يكون الإنسان أبيض الوجه في الدنيا ولكن لسوء عمله يسود وجهه في الآخرة ، وكذلك العكس. قال تعالى: ﴿ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ ﴾ آل عمران: (١٠٦).

(٧) وصف النبات في القرآن بلونين هما: الأخضر والأصفر ، أولهما يتضمن دلالة الخصوبة والنماء ، في حين يشتمل الآخر على دلالة الجدب والهلاك.

(٨) وصف الحيوان في القرآن بلونين هما: الأصفر والأسود أولهما يتضمن دلالة النضارة والحيوية ويسر الناظرين ، في حين يشتمل الآخر على التخويف والتهويل وينفر ويخوف الناظرين.

(٩) اللونان الأبيض والأسود يأتيان للدلالة على معنى غير حقيقي في الدنيا ، فجيء بهما كناية عن النور والظلام ، في قوله تعالى: ﴿ ... وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ

... ﴾ البقرة: (١٨٧) . ويأتيان في الآخرة من باب الكناية ، حيث الدلالة على حال المؤمنين واستبشارهم بالجنة، وبالسوء على حال الكفار وسوء منقلبهم وخزيهم ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ... ﴾ آل عمران: (١٠٦) ، وقوله: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ... ﴾ الزمر: (٦٠).

(١٠) يأتي اللون الأبيض منفرداً للدلالة على معنى حقيقي في الدنيا ، وذلك في وصف يد سيدنا موسى – عليه السلام – لإظهار المعجزة ، قال تعالى: ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ الأعراف: (١٠٨). في حين جاء اللون الأسود منفرداً في الدنيا للدلالة على معنى غير حقيقي ، وذلك من باب الكناية عن الكآبة والحزن والأسى عند البشارة بميلاد الأنثى ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ النحل: (٥٨).

(١١) الموصوف بالألوان في القرآن نوعان:

الأول: الموصوف في الدنيا وعالم الشهادة:

والمراد منه – والله أعلم – لفت الأنظار والأفئدة إلى التناغم والتناسق في الكون والخلق، مثل وصف الزروع والأشجار والثمار بالخضرة والصفرة عند قرب جفافها وفيه دلالة واضحة على إبداع الخالق الحكيم في خلقه.

الثاني: الموصوفات في عالم الغيب " الآخرة " :

وذلك في وصف الجنة وأهلها وقصورها وخمرها بالخضرة والبياض والحمرة ، وفي هذا النوع استفزاز للطاقة البشرية

وتحريكها للمسارعة والسباق للفوز بهذا النعيم وذلك من خلال تشبيه المحسوس بالمحسوس والمحسوس بالمعقول ، وإظهار الصورة للموصوف.

(١٢) وهكذا فقد جاءت الألوان في سياقات نظم القرآن كاشفة عن كثير من المعاني والدلالات المتصلة بالإنسان ، والحيوان ، والنبات ، والجماد ، في عالم الشهادة في الدنيا ، كما تغلغلت في كثير من مشاهد الغيب في الآخرة.

وأخيراً: فهذه هي الألوان ، وتلك هي المعاني والأسرار التي جاءت بها السياقات المتنوعة والمقامات المختلفة. وهذا هو الجمال اللفظي الذي انبثق عن استخدام ألفاظ الألوان استخداماً كشف عن دقة السياق القرآني وروعة بنائه. وكيف يتحول اللفظ إلى جوهرة تبهرنا بألوانها كلما تحركت من سياق إلى سياق ! وكيف تنسجم هذه الألوان والمعنى المراد ؟! وكيف تتحد مادة الكلمة وتختلف دلالتها المجازية من مكان إلى مكان ، ويتحقق لها معنى الجدة والطرافة بتنقلاتها في المنازل المختلفة !!

وبعد:

فإذا كنت قد وقفت إلى كشف بعض أسرار الألوان في نظم القرآن ، فذلك فضل من الله ونعمة ، وإن كانت الأخرى فحسبي تلك المعايشة الروحية للقرآن الكريم. ومن رحمة الله – تعالى – بالمجتهدين أنه لا يحرم المخطئ منهم من الأجر، ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.

٢. الإعجاز البلاغي – دراسة تحليلية لتراث أهل العلم. أ. د/ محمد أبو موسى ، ط/ ١٤٠٥ هـ ١٩٨٤م. مطبعة المختار الإسلامي – الناشر مكتبة وهبة – بالقاهرة.

٣. الإعجاز العلمي في القرآن الكريم. محمد كامل عبد الصمد. ط/ السادسة – سنة ٢٠٠٦م – الدار المصرية اللبنانية.

٤. الإعجاز العلمي في القرآن والسنة. أ. د/ كارم السيد غنيم.

٥. إعجاز القرآن على مرِّ الزمان. أ. د/ كارم السيد غنيم.

٦. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الحكيم. لأبي السعود العمادي. ط/ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

٧. أسرار البلاغة. الإمام عبد القاهر الجرجاني. ط/ صبيح – سنة ١٩٧٩م.

٨. أسرار النظم في سورة الحج. د/ محمد علي أبو زيد.

٩. ألفاظ الألوان في القرآن الكريم – دراسة في البنية والدلالة. دكتور/ عصام الدين عبد السلام أبو زلال – الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٦م. دار الوفاء للطباعة والنشر الإسكندرية.

١٠. الألوان في القرآن. أحمد رأفت. الطبعة الأولى سنة ١٩٩٠م – مطبعة الأمانة.

١١. أنوار التنزيل وأسرار التأويل. (تفسير البيضاوي) ط/ دار الفكر: ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.

١٢. الإيضاح للخطيب القزويني.

١٣. البحر المحيط. لأبي حيان الغرناطي. ط/ دار الفكر، الطبعة الثانية: ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م.

١٤.التحرير والتنوير. للطاهر بن عاشور. ط/ الدار التونسية ، ١٩٨٤م.
١٥.تفسير القرآن العظيم. لابن كثير. دار التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع ، وط/ دار إحياء الكتب العربية – مصر – القاهرة.
١٦.التفسير الكبير. للفخر الرازي (مفاتيح الغيب). دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان.
١٧.التفسير القيم لابن القيم.
١٨.التفسير الوسيط للقرآن العظيم. للواحدي النيسابوري.
١٩.الجامع لأحكام القرآن. لأبي عبد الله القرطبي. ط/ دار الشام للتراث – بيروت – لبنان.
٢٠.حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي – المسماه بعناية القاضي وكفاية الراضي. ط/ دار صادر.
٢١.حاشية الشيخ زادة على البيضاوي.
٢٢.حاشية الصاوي على الجلالين.
٢٣.الدر المصون. للسمين الحلبي.
٢٤.روح المعاني. للألوسي.
٢٥.صفوة التفاسير. محمد علي الصابوني. دار الرشيد – سوريا – حلب.
٢٦.الضوء واللون. فارسي ماتري ظاهر. ط/ الأولى ١٩٧٩م –دار القلم – بيروت – لبنان.
٢٧.في ظلال القرآن. سيد قطب. ط/ دار الشروق.
٢٨.علم النفس المعاصر. د/ حلمي المليجي. ط/ الأولى ١٩٨٤م.
٢٩.الكتاب لسيبوية. ت/ عبد السلام هارون.
٣٠.الكشاف للزمخشري. ط/ دار الكتب – بيروت.
٣١.لسان العرب. لابن منظور. ت/ نخبة من العاملين بدار المعارف. ط/ دار المعارف.

٣٢.اللغة واللون. د/ أحمد مختار عمر. ط/ عالم الكتب بالقاهرة. الطبعة الأولى ١٩٩٧م.

٣٣.مع الطب في القرآن الكريم. د/ عبد الحميد دياب ، د/ أحمد قراقوز. مؤسسة علوم القرآن.

٣٤.المعجم المفهرس لألفاظ القرآن. فؤاد عبد الباقي.

٣٥.المفهوم العلمي للجبال في القرآن الكريم – الجزء الثالث – من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم. أ.د/ زغلول النجار. ط/ السادسة: ١٤٢٤هـ ٢٠٠٤م. مكتبة الشروق الدولية.

٣٦.مفردات في غريب القرآن. للراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢هـ) كتاب الجمهورية. دار التحرير للطبع والنشر.

٣٧.نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (ت: ٨٨٥هـ) دار الكتاب الإسلامي – القاهرة. الطبعة الثانية ١٤١٣هـ ١٩٩٢م.

٣٨.هموم الفكر والوطن – الجزء الأول (التراث والعصر والحدث) د/ حسن حنفي. ط/ دار قباء وعبده غريب. القاهرة. الطبعة الثانية .

١٦٦٤